مكتبة حراء

نحو عالم بلا خوف

إعداد/ نور الدين صواش

دار الانبعاث للنشر والتوزيع

مكتبة حراء

نحو عالم بلا خوف

نحو عالم بلا خوف

الطبعة الأولى

Copyright©2019 Dar al-enbeath

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

إعداد

نور الدين صواش

الإخراج الفني

محمد أشرف

رقم الإيداع

2019/26915

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6704-03-9

رقم النشر

014

دار الانبعاث للطباعة والنشر والتوزيع

Tel: +20123201002 - +201066067034

E-mail: daralinbiath@gmail.com

www.daralinbiath.com

نحو عالم بلا خوف

إعداد
نور الدين صواش

www.hiragate.com

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

تقديم ٩

حب الوطن.. نظرة تأصيلية شرعية ١٧

حب الوطن في القرآن وكلام المفسرين ١٩

حب الوطن في الحديث النبوي الشريف ٢١

حب الوطن عند الفقهاء والحكماء ٢٢

هدْيُ النبي ﷺ في التعايش مع الآخر ٢٤

نموذج مكة: الصبر والتعايش ٢٥

نموذج الحبشة: الوفاء والمشاركة ٢٧

نموذج المدينة في المرحلة الأولى: الانفتاح والتعاون ٢٩

نموذج المدينة في عهدها الأخير: العدل والوعي قبل السعي ٣٠

مسؤولية الإنسان ٣٣

واقع الأمة وغياب المسؤولية ٣٥

القيم الإنسانية وضابط الدين ٤٢

نظرة الرسول إلى الوجود ٤٣

ثوابت القيم الإنسانية ٤٤

كيف يمكن أن تُطبق هذه المعاني في عالم الأرض؟ ٤٦

لماذا تحتاج القيم الإنسانية إلى ضابط الدين؟ ٤٧
القيم تنبع من إنسانية الإنسان ٤٩
مفهوم الوسطية في تقويم الفكر واستقامة السلوك ٥٢
نحو نظام وأصول فكرية كلية مؤطرة لتداول المفاهيم ٥٥
الوسطية منهاج وميزان ٦٧
الوسطية منهج بنائي لا توفيقي ٧٢
آليات بناء ثقافة الوسطية ٧٤
١- بناء ثقافة وسطية الفكر الإسلامي ٧٦
٢- بناء وسطية الفكر السياسي ٧٨
٣- بناء ثقافة الوسطية في الفكر الاقتصادي ٧٨
٤- بناء ثقافة وسطية الفكر الاجتماعي الإسلامي ٨٠
٥- بناء ثقافة الوسطية في الفكر التربوي والإعلامي ٨١
التوازن الفكري ٨٦
آليات التوازن الفكري ٨٩
مصادر التصورات ٩٢
التطرف والغلو باسم الدين وآثاره السلبية على الإسلام ٩٦
كيف نتخذ سبيل الرشد سبيلا؟ ١٠٥
الرشد في القرآن الكريم ١٠٨
مبدأ الرشد ١٠٩
ظاهرة الانحراف الفكري وطرق علاجها ١١٦
١- التوصيف الدقيق لهذه التنظيمات إعلاميًا ١١٧

٢- وقفة مسلمي العالم وقفة جادة ١١٨
٣- القضاء على أشكال التمييز والتهميش والإقصاء الاجتماعي على مستوى الدول والمجتمعات ١١٨
٤- التصدي لهذه التنظيمات في ساحة الفكر ١١٩
٥- استيعاب طاقات الشباب في فضاءات إيجابية ١٢٠
العقيدة عطاء من الركود إلى الفاعلية ١٢٢
الحاجة إلى التجديد ١٢٢
العقيدة الفاعلة ١٢٤
مفتاح القلوب ١٢٥
مقررات مادة العقيدة ١٢٦
العنف مسبباته ودوافعه ١٢٨
جذور العنف ١٣٠
الأسباب التربوية ١٣١
الأسباب الاقتصادية ١٣٢
الأسباب الاجتماعية والإحباط النفسي ١٣٢
الأسباب الفكرية ١٣٣
الأسباب السياسية ١٣٤
وسائل الإعـلام ١٣٥
براءة الإسلام من العنف والإرهاب ١٣٧
سماحة الإسلام ١٣٨
الإرهاب مصطلح غربي ١٤٠

الإعلام ودوره في تصعيد لغة العنف ١٤٦
نظرات في مفهوم القوة في الإسلام ١٥٢
١- الشهادة في تكوين المؤمن القوي ١٥٢
٢- إقامة الصلاة في تكوين المؤمن القوي ١٥٢
٣- الصيام في تكوين المؤمن القوي ١٥٣
٤- الزكاة في تكوين المؤمن القوي ١٥٤
٥- الحج في تكوين المؤمن القوي ١٥٤
ما هي أنواع القوة الأخرى وعناصرها؟ ١٥٨
١- قوة العلم وأولوياته ١٥٨
٢- قوة المال ١٥٩
٣- قوة الإعلام بين الواقع والمطلوب ١٦١
الخوف من الإسلام رؤية علاجية ١٦٤
التمظهرات ١٦٥
ما هي الأسباب والعوامل؟ ١٦٦
تنميط صورة الإسلام والمسلمين ١٧٠
مواجهة ظاهرة الخوف من الإسلام ١٧٣
الوصايا العشر لتفريق المسلمين باسم الإسلام ١٧٥
لكيلا يكون شبابنا فريسة للتنظيمات الإرهابية ١٨٠

تقديم

الحمد لله رب العالمين، حمدا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده. والصلاة والسلام على نبي الرحمة، ومعلم الناس الخير، سيدنا محمد القائل "إنما أنا رحمةٌ مُهْداةٌ"، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فالأمن والطمأنينة مطلب إنساني قديم قدم الإنسان نفسه، وهدف أساس تسعى إليه البشرية، وتبحث عنه؛ تبحث عن الأمن في حياتها، وحركتها، وحريتها، ووسائل عيشها. تبحث عن الأمن بكل حدوده وأبعاده، في أنفسها، وفيمن حولها مما يحيط بها ويتصل معها بسبب.

وتتدارك البشرية منذ لحظة نزولها على هذه الأرض عناية الله؛ يبعث رسله وأنبياءه ليقرروا هذا المطلب الإنساني، ويحثوا عليه، ويأمروا به، وينهوا عن كل ما ينال منه، أو يؤدي إلى تقويضه.

إن قضية الأمن باعتبارها هدفا أسمى للوجود الإنساني، كانت مادة أساسية حوتها ودعت إليها الرسالات الإلهية عبر مسيرتها مع الإنسان، بدءا بسيدنا آدم وزوجه حواء عليهما السلام؛ حيث أتاهما الوعد الإلهي عندما أُهبِطا إلى الأرض، بانتزاع عوامل الخوف والقلق؛ وما يترتب عليه من حزن، بشرط اتباع الهدى، وتجنب الزيغ والضلالة

﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨).

لكن وللأسف الشديد رأينا البشرية في تاريخها الطويل تخرج على رسالات الأنبياء والمرسلين، وتدخل في صراعات مقيتة، وخلافات ذميمة؛ زجت بها في اقتتال، وتناحر، وسفك للدماء، وضياع للأمن، وتقويض لكل حسن جميل تحتاجه الحياة، ويطمع فيه الناس.

وعلاج هذا يتطلب من ذوي العلم، والفهم، والكياسة، والعقل؛ أن تتضافر جهودهم على رد الناس إلى المعنى الجميل الذي خلقوا من أجله؛ وهو التعارف، والتآلف، والاجتماع، والوحدة .

وها نحن أمام زاد فكري نفيس، جادت به قرائح العلماء ذوي الخبرة في مجال البناء الفكري، ومعالجة قضايا التطرف والخلاف، والتحليل العميق لدوافعه وآثاره.

وعند التأمل الفاحص في هذه المقالات مجتمعة، يتضح أنها تلتقي حول قضية وغاية.

أما القضية فهي "الأمن" بكافة أبعاده ومستوياته، وأما الغاية فتتمثل في كيفية تحقيق هذا الأمن في صورة خطوات متكافئة، تجمع بين التأصيل النظري، والتطبيق العملي.

ويتسع مفهوم الأمن: طولا، وعرضا، وعمقا؛ ليستغرق الزمان، والمكان، والإنسان. فمن حيث الزمان يتجه الإنسان لتأمين حاضره، ومستقبله القريب والبعيد، ليس فقط على مستوى الحياة المحدودة التي يعيشها، وإنما على مستوى الحياة الدنيا والآخرة؛ ليضمن السعادة والسلامة في كليهما معا، وذلك بامتثاله لعوامل الأمن

والنجاة، واصطحابه للزاد الذي يقدمه قربة في سبيل نوال هذا الأمن.

ومن حيث المكان؛ فإن الإنسان يتوجه إلى السعي الحثيث لبث الأمن في أرجاء الأرض، بأوطانها المتنوعة التي تعارف البشر عليها، إذ هو نعمة عظمى يستروح الناس في ظلها شتى أنواع النعم الأخرى. وأما المستوى الإنساني للشعور بالأمن؛ فإنه لا يقتصر على تأمين الإنسان مطالب جسده فقط، وإنما يمتد ليشمل الحاجات الروحية والنفسية، فيتخذ من الأمن البدني سبيلا لتحقيق الأمن الروحي، ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قريش:٣-٤).

وهنا يتساءل إنسان العصر ـ وحُقَ له أن يفعل ـ كيف يأمن الناس على أنفسهم، وعقولهم، وأديانهم، وأعراضهم، وأموالهم، في ظل احتدام الرؤى، وشيوع الأفكار الشاذة التي تقلق قطاعا عريضا من الناس؟! من أين يستمد الوجود الإنساني أمنه وبقاءه، وضبط أوجه النشاط والسعي؛ في ظل تباين التوجهات المعاصرة؟

وتكمن الإجابة ابتداء، في ضرورة البناء الفكري المنضبط بمقاصد الشرع، كمرحلة أولية، يستتبعها السعي لتحصين هذه الأفكار الرشيدة، وحمايتها من الأفكار المزيفة المدخولة، التي تحاول من حين لآخر، تشويه حقائق الفكر، وتعكير صفائه ورونقه.

إن الفكر هو الوقود المحرك للحياة، وغذاؤها الذي يجدد الحركة والنشاط والسعي في أرجاء الأرض؛ فما من عمل إلا ويسبقه فكرة تمده بالنماء والاستمرار، والثروة الحقيقية التي تمتلكها المجتمعات،

إنما هي ثروة فكرية في المقام الأول، تغذي مجالات البناء بخطط راشدة، تتحول إلى إعمار وتشييد، فإذا أصيبت المجتمعات في فكرها، فلا خير يُرجى من ورائها؛ لذا وجب على العلماء أن يؤدوا مسؤوليتهم تجاه المجتمع الإنساني بأكمله، حماية وصيانة للمجتمعات من خطر يتهددها، وغوائل تفترس ناشئتها على المدى القريب أو البعيد، خاصة في ظل التحول الذي تشهده المجتمعات على كافة الأصعدة، وكثرة العوارض والتحديات التي تنتاب مقصد "الأمن".

ومن هنا يأتي هذا السفر الثمين، من خلال مقالاته الثماني عشر، تلبية لهذه الضرورة المعاصرة، وتأكيدا على هذه القضية المفصلية في بناء المجتمعات والأوطان، إنها قضية (الأمن) في شتى أبعاده وصوره التي تستغرق الحياة كلها وتعلو فوق الزمان والمكان، كما أنها تتجه إلى تحقيق هذا الأمن من خلال مسارين؛ أولهما: المسار البنائي للفكر الصحيح المتوازن. وثاني هذه المسارات: اتجاه الحماية والتحصين؛ الذي يحوط البناء بسياج منيعٍ واق من التصدع والانهيار.

تستهل المقالاتُ الحديثَ عن حب الأوطان باعتباره فطرة مركوزة في النفس البشرية، وباعث لنشر الطمأنينة والأمن؛ فأساس كل بناء إنما ينبع من قلب تشَبَّع بالحب للخير والعطاء، بما يدفع الفرد للحفاظ على البقعة التي ينتمي إليها، ويبلغ المجتمع الذروة العليا في الانتماء، عندما يصطف أبناؤه في إثبات هذا الانتماء الحقيقي في صورة التعايش الكامل، والتماسك المجتمعي، مستلهمين النماذج النظرية والعملية لهذا التعايش من التاريخ القريب والبعيد، والاعتبار بالتجارب والأحداث التي خاضتها المجتمعات، كما يأتي الحديث

عن دور المسؤولية بأبعادها الشاملة، لتثبت أنه لا يخلو أي إنسان من مسؤولية يؤديها، كل حسب موقعه ومكانته في المجتمع، حتى ولو كانت في صورة حفاظ المرء على جوارحه وحمايته لنفسه وفكره، إذ المسؤولية الفكرية مناط الأمن.

ولمكانة القيم في حياة الأمم، وضرورتها لأمن الإنسان، تُعرِّج المقالات على القيم الإنسانية وكونها أمان للبشرية، كما تبحث عن مصادرها واستمدادها، وضرورة أن ترتبط بأصول سماوية؛ ليبقى لها قدسيتها في التطبيق، ومحاولة الالتزام بها.

ونظرا لمكانة الفهم الصحيح لرسالة الإسلام، وحقيقة الوسطية التي تنتظم عقيدته وشعائره ومبادئه، يأتي مقال عن "الوسطية" ليلقي الضوء على أثر الوسطية في تبديد كثير من الأفهام الخاطئة التي شوهت الحقائق، حيث لم يكتف بتأصيلها مفهوما وتقديم نماذج لها، بل امتد لتصور بنائي ينسج المجتمع منه خطوات عملية لبث الوسطية في قطاعات متعددة من المجتمع، إنها موقع ينطلق منه المسلم، لإعادة بناء ما تهدم، وترميم الذات وتجديدها، لتبقى صُلبة لا يؤثر فيها هزات أو محاولات شاذة خارجة عن حقائق الإسلام.

وامتدادا لترسيخ هذه الوسطية، ينتقل المقال التالي لقضية "التوازن الفكري" فإذا كان البعض ممن انحرفوا عن الجادة في فهمهم وتطبيقهم للإسلام، قد توهم أن مصادر تلقي المعرفة تنحصر في الدين فقط، فإن الحاجة قاضية ببيان مصدرية استمداد الأفكار والتصورات، وإلقاء الضوء على القيمة المعرفية للمصادر التي يتلقى المرء المعرفة عن طريقها مثل: (التجربة، والعقل، والفطرة)

لما لذلك من وقع وأثر في ضبط الفكر وحمايته، وتحقيق للتوازن الفكري في المجتمع.

وفي إطار المسار التحصيني للفكر، تحتشد مجموعة من المقالات؛ لتبدأ بالبحث عن الجذور التاريخية للتطرف الفكري، ومظاهره؛ كي يحذر المجتمع من تشابه الظروف، وسرعة البدء في العلاج، متى بدت بوادر هذا التطرف في صورة فردية أو جماعية.

وإدراكا لقيمة الانطلاق في الحياة على هدى وبصيرة، وأثر ذلك في مجابهة الغلو والتطرف، يلمح أحد المقالات إلى ضرورة اتخاذ طريق الرشد منطلقا أوليا في الحياة، إذ به تتحدد كثير من الأعمال السديدة، وفي المقابل فإن التخبط يُنتج أعمالا فاسدة، لا تعي رسالتها وحقيقة ما تقوم به من ممارسات، وما بين رصد مظاهر التطرف ووضع العلاج، تأتي تلك التجربة الفريدة لمدارس الخدمة من خلال خطوات علاجية استباقية، يحفظ بها المجتمع أبناءه من خطر الانحراف والزيغ.

وفي سبيل تتبُّع الجذور البعيدة للعنف، والمؤثرات المتشابكة الحافزة لهذا النوع المضاد للفطرة السوية، يأتي الحديث عن الخلط والتداخل المفاهيمي لبعض المصطلحات، والتنميط الفكري للمفاهيم الجاهزة، وربطها في سياقات مغايرة للحقيقة بالمصطلحات الإسلامية، مثل: (الجهاد، والدعوة). كما تناولت المقالات الدور المحوري للإعلام في نشر المفاهيم، وعلاج مظاهر الانحراف الفكري، وذلك لما للإعلام من آليات ووسائلَ مؤثرة في المجتمعات المعاصرة، وما يستتبع ذلك من آثار في نشر الأمن المجتمعي.

وسعيا لتحقيق عوامل القوة، خاصة في ظل الواقع الذي لا يعترف بالمهمشين أو الضعفاء، يرصد أحد المقالات دور العبادات وأركان الإسلام في تغذية وتنمية القوة لدى أفراد المجتمع، ليقدِّموا من أنفسهم نموذجا قويا جاذبا لمن حولهم من الأمم، للتعاون معهم على البر والعدل.

إن شيوع المفاهيم الخاطئة ليس حكرا على أمة بعينها، بل قد يظهر عند أكثر الأمم رقيا وتمدنا، بما يستلفت الانتباه إلى رصد العوامل المؤثرة في شيوع فكرة ما، ودراسة الأسباب البعيدة لهذه الظواهر والمفاهيم، وتطبيقا لهذا البُعد التحليلي تعرج المقالات لتناول ظاهرة "الخوف من الإسلام" في المجتمعات الغربية، فتشير إلى الأسباب وتجلياتها وعلاجها في أسلوب متكامل متداخل.

وبأسلوب ذكي، يأتي المقال الذي يتحدث عن "الوصايا العشر لتفريق المسلمين" وفي الحقيقة، إنها ليست وصايا ـ إذِ المسلم مأمور بالتواصي بالحق والخير ـ؛ ولكنها تسجيل لواقع بعض المنتسبين للإسلام في إشاعة الفرقة وزعزعة أمن المجتمعات، في صورة تنبه على خطورة هذه الأفعال، وضرورة اجتنابها، ثم يأتي المقال الأخير، في صورة بديعة، وكأنه ينبئ عن الهدف مما سبقه من مقالات، فلو سألتَ ـ أيها القارئ ـ عن الهدف الذي احتشدت هذه المقالات من أجله، لجاءك الجواب "لكيلا يكون شبابنا فريسة للتنظيمات الإرهابية".

وبهذا أيها القارئ، تلمح الخيط الجامع الذي يشد هذه الكتابات، لينسج منها قضية محورية تتصل بأمن المجتمع وبناء الأفكار وحمايتها، إنها بحق فكرة رائدة متميزة، تثبت الحاجة إلى التنقيب

في العطاء الفكري للعلماء والبحث عن كنوزه، وإعادة إصدارها مرات ومرات، تثبيتا لدعائم الخير، وحفاظا على العقول والأفكار، لضمان صفاء الفكر ونقائه.

فإلى هذه الجرعات الفكرية التحصينية، في واقع تتناوشه آفات فكرية متجددة، عسى أن ينتفع بها المسلمون، وكل عاشق للحقيقة، متطلع للتعاون على البر والتقوى.

وبهذا يبرز الدور الريادي والتثقيفي والتوعوي الذي تضطلع به مجلة حراء حيث قوة موضوعاتها ووضوح طرحها وواقعية معالجتها وتقديمها الحلول الناجعة لمشكلات الواقع.

إننا حقا بحاجة ماسة إلى الصراحة والوضوح في تناول قضايا الأمة الذي يستتبع التشخيص السليم لما نعانيه من مشكلات فكرية تموج في جنبات عالمنا الإسلامي والذي ينتج عنه قطعا علاج شاف وحل كاف لهذه المشكلات.

جزى الله القائمين على هذا العمل خير الجزاء وأتمه وأحسنه.

أ.د. أحمد حسين محمد إبراهيم

عميد كلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر

٢١ ربيع الأول ١٤٤١هـ

لموافق ١٨ نوفمبر ٢٠١٩م

حب الوطن.. نظرة تأصيلية شرعية[1]

د. أسامة السيد الأزهري[*]

لقد غرس الشرع الشريف في نفس الإنسان حب وطنه، وزكى فيه دوافعه الفطرية النبيلة في الانتماء للأوطان وحبها والدفاع عنها، حتى أشار إلى نبل انتماء الإنسان لوطنه في عدد من الآيات والأحاديث النبوية.

إن الوطن في الحقيقة ليس حفنة تراب، بل هو شعب، وحضارة، ومؤسسات، وتاريخ، وانتصارات، وقضايا، ومكانة إقليمية ودولية، وتأثير سياسي وفكري في محيطنا العربي والإسلامي، ورجال عباقرة صنعوا تاريخ هذا الوطن في مجال العلم الشرعي وفي التاريخ الوطني الحافل بالنضال لحماية هذا الوطن، وفي التاريخ الاقتصادي والتاريخ العسكري، وغير ذلك من المجالات التي نبغ فيها العباقرة من أبناء هذا الوطن.

إن الشرع يكتفي في عدد من المسائل بثبات دوافع الطباع، فلا يأتي فيها الشرع بتشريع أو أمر معين، مطمئنًا إلى أن الطبع السليم كفيل بتوجيه الإنسان.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٠ من مجلة حراء سنة ٢٠١٧.

[*] من علماء الأزهر الشريف بمصر.

ومن هذه الأمور التي ينتجها الطبع السليم حب الوطن والانتماء إليه والوفاء له. وقد روى الدينوري في كتاب "المجالسة" من طريق الأصمعي قال: سمعت أعرابيًا يقول: "إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه"[1].

لمَّا كان الانتماء مكونًا راسخًا من مكونات الفعل البشري، وهو من أهم مكونات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقد أكده الشرع الشريف، وانطلق منه، وعول عليه، ولم يقمه أو يتجاهله، ولكن عدَّله ونسَّقه، وحدد للمكلف معالم راقية للانتماء، تلبي ذلك الدافع القهري المنبعث من داخله، وتحفظه من مزالقه التي من الممكن أن يؤدي إليها.

ثم إن الشرع الشريف لم ير بأسًا بوجود انتماءات جزئية في إطار ذلك الانتماء الكلي، تدعمه وترسخه، وتنبع منه، وتفضي إليه، ولا تخرج عن نسقه الكلِّي، فسمح بمحبة البقعة المحددة التي ولد فيها الإنسان وعاش وهي موطنه المباشر، ولا يتعارض ذلك مع محبة الأمة بأكملها، بل هو جزء منها، فإن غلب عليه حبه وانقلب تعصبًا يعادي من أجله المسلم الناس، فإن الشرع يرفضه. ومن هنا جاءت محبة الأوطان والديار، وأكد الشرع قضية حب الوطن، وكان ﷺ يحب مكة ويشتاق إليها مع أن المدينة مقره مثواه. وانتماء الإنسان لوطنه لا يلغي ولا ينفي انتماءه إلى أمته العربية وعالمه الإسلامي، لأنها دوائر متداخلة.

والانتماء إما أن يزول فيدفع صاحبه إلى التنكر والتبرؤ من أوطانه وقومه وأهله، مما لا يحمل به الانسلاخ منه، وإما أن يزيد

---

[1] المجالسة وجواهر العلم ١/٦٠، ط: دار أبن حزم، بيروت، سنة ١٤٣٣هـ - ٢٠٠٢م.

بصاحبه فيصل به إلى العصبية التي تجعل انتماءه هذا يفسد عليه ما يربطه بأبناء الدوائر الأوسع من الانتماء. ففارق بين حسن الانتماء والوفاء والقيام لكل دائرة من دوائر الانتماء بحقها بما لا يقطع روابط البشر وهو الذي نتحدث عنه، وبين التعصب الذي يجعل الإنسان شديد الحمية إلى دائرة بعينها من دوائر الانتماء، تجعله يعادي من سواها ويقاطعه ويتحامل عليه.

ولقد تبين مما سبق من كلام أئمة الهدى، أن حب الوطن دائرة من دوائر الانتماء، نطقت بها الفطرة، وسقاها الشرع الشريف ورعاها وأقام موازين القسط بينها وبين بقية دوائر انتماء الإنسان، بحيث لا يجور بعضها على بعض، وبحيث تتراكم وتتسق بما يحقق كمال إنسانية الإنسان.

ومما يجدر ذكره أن الأوطان ليست حدودًا جغرافية صنعها الاستعمار، بل الأوطان بقاع عريقة قبل الاستعمار بألوف السنين، واستقرار الوضع الحالي على تلك الحدود يوجب علينا حفظها والدفاع عنها. ورفع تلك الحدود لا يكون بالتلاعب، بل بالاتفاقات العليا التي يتم إبرامها وفق آليات محترمة كما صنع الاتحاد الأوروبي مثلاً، وما لم يتم ذلك فلا بد من احترام الوضع القائم والحفاظ عليه وعدم تضييعه ولا انتقاصه ولا التفريط فيه، فضلاً عن أن قيمة الوطن ليست متعلقة أصلاً بفكرة الحدود، بل الوطن قيمة تاريخية وعلمية وإقليمية وعالمية.

حب الوطن في القرآن وكلام المفسرين

للإمام الفخر الرازي ملمح لطيف في الاستدلال من القرآن

الكريم على حب الوطن، وأنه داع فطري شديد العمق في النفس، أشار إليه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾(النساء:٦٦) فقال: "جعل مفارقة الأوطان معادلة لقتل النفس"[١].

كأن الله تعالى يقول: ولو أني كتبت عليهم أعظم مشقَّتين في الوجود لم يمتثلوا، وأعظم مشقَّتين هما قتل النفس، ويقابلها فراق الوطن، فمشقة قتل النفس في كفة، ويوازيها ويساويها تمامًا فراق الوطن. ففراق الأوطان أمر صعب جدًّا يساوي ألم قتل النفس، مما يدل على أن التعلق بالوطن وحبه أمر عميق في النفس. وقال العلامة الملا علي القاري في "مرقاة المفاتيح": "ومفارقة الأوطان المألوفة هي أشد البلاء"، ومن ثم فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾(البقرة:١٩١) بالإخراج من الوطن؛ لأنه عقَّب بقوله: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾(البقرة:١٩١).

ومن ثم فإن كل آية تُظهر فضل الهجرة فإنها راجعة إلى هذا الأصل، والذي هو شدة الصبر ومغالبة النفس على فراق الأوطان المحبوبة إيثارًا لمعنى من المعاني الشريفة، فكم لهذا المعنى من قدر حتى تصبر النفس على تلك المشقة العظيمة لأجله. قال الشاعر:

ثلاثٌ يَعِزُّ الصبرُ عند حلولها ويَذْهَل عنها عقلُ كل لبيب

خروجُ اضطرار من بلاد يحبّها وفُرقة إخوان وفُقد حبيب

---

[١] التفسير الكبير /١٥/١٦٥.

حب الوطن في الحديث النبوي الشريف

روى البخاري، وابن حبان، والترمذي من حديث أنسﷺ أن النبي ﷺ كان إذا قدم من سفرٍ، فنظر إلى جُدُران المدينة، أوضع راحلته، وإن كان على دابة حركها من حبها. ففي هذا الحديث الجليل تصرفٌ نبوي هادٍ، محفوف بالعصمة، تَحرَّك به الجَنانُ النبوي الشريف، ومن ورائه الإلهام الصادق والوحي المبين، بحنين القلب إلى الوطن ونزوع الفؤاد إليه، حتى إن كان ﷺ لَيُحرِّك دابتَه إلى المدينة المنورة إذا قفل من سفره، وأبصر جدرانها، من حبها وحنين الجَنان الشريف إليها.

ولذلك قال الحافظ بن حجر في "فتح الباري في شرح صحيح البخاري": "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة، وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"، ونحوه عند البدر العيني في "عمدة القاري".

قال الحافظ الذهبي في "سير أعلام النبلاء": "وكان يحب عائشة، ويحب أباها، ويحب أسامة، ويحب سِبطيه، ويحب الحلواء والعسل، ويحب جبل أحد، ويحب وطنه، ويحب الأنصار، إلى أشياء لا تحصى مما لا يغني المؤمن عنها قط".

بل جعل العلماء حب الوطن هو علة مشقَّة السفر مطلقًا، حتى ذهب إلى ذلك بعض شراح الحديث في تفسير الحديث الذي رواه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر الجهني أنه ﷺ قال: "ثلاثة تستجاب دعوتهم: الوالد لولده، والمسافر، والمظلوم على ظالمه"؛ فعلّل الشراحُ سبب استجابة دعاء المسافر هو ما يعانيه من فاقة واضطرار

وحزن لمفارقة وطنه وأهله. فقال العلامة المناوي في "فيض القدير" شارحًا للحديث: "لأن السفر مظنة حصول انكسار القلب بطول الغربة عن الأوطان، وتحمّل المشاق والانكسار من أعظم أسباب الإجابة".

وقال بعض الحكماء: "الحنين إلى الوطن من رقة القلب، ورقة القلب من الرعاية، والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرشد". ولقد فطر الله تعالى الخلائق جميعًا على الميل الفطري الحنيف اللطيف إلى أوطانها، وأودع سبحانه في الفِطَر النقية من سائر الموجودات قرارًا وسكونًا وانشراحًا إلى الوطن، حتى إن المتأمل ليجد ذلك في سائر أجناس الوجود؛ فالآساد والأشبال تأوي إلى عرينها، والإبل تحن إلى أعطانها، والنمل يحن إلى قراه، والطيور تهوى وتميل إلى كناتها، والإنسان مجبول ومفطور على شدة الحنين إلى الوطن. وقد قال ابن الجوزي رحمه الله في "مثير الغرام الساكن": "والأوطان أبدًا محبوبة".

فإذا كانت أجناس الوجود كلها من حولنا، رغم أنها عجماء لا تفصح ولا تُبِين، قد تَبيَّن من ملاحظة طباعها وأحوالها، شدة وفائها وحنينها إلى أوطانها، فالإنسان أولى بذلك منها لما يمتاز به عنها من الكمالات الإنسانية، التي تجعله محلاً لكل خُلق كريم، والوفاء والمروءة على رأس تلك الشمائل.

حب الوطن عند الفقهاء والحكماء

لقد ذهب الفقهاء إلى تعليل حكمة الحج وعظمة ثوابه، إلى أنه يهذب النفس بفراق الوطن والخروج على المألوف. قال الإمام القرافي

في "الذخيرة": "ومصالح الحج تأديب النفس بمفارقة الأوطان".

ولم يزل دأب الصالحين محبة الأوطان، حتى لقد روى أبو نعيم في "حلية الأولياء" بسنده إلى إبراهيم بن أدهم أنه قال: "ما قاسيت فيما تركت شيئًا أشد عليَّ من مفارقة الأوطان".

وقد روى الدينوري في "المجالسة" من طريق الأصمعي قال: "سمعت أعرابيًّا يقول: إذا أردتَ أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه".

هدْيُ النبي ﷺ في التعايش مع الآخر[1]

أ.د. علي جمعة[*]

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

لقد ترك لنا رسول الله ﷺ أربعة نماذج للتعايش مع الآخر داخل الدولة وخارجها. أحدها هو النموذج الذي كان في مكة المكرمة وكان المقام فيها هو مقام "الصبر والتعايش". والنموذج الثاني هو نموذج بقاء المسلمين في الحبشة وكان المقام فيها مقام "الوفاء والمشاركة". والنموذج الثالث هو نموذج المدينة في عهدها الأول وكان المقام فيها هو مقام "الانفتاح والتعاون". والنموذج الرابع كان في المدنية في عهدها الأخير وكان المقام فيها هو مقام "العدل" و"الوعي قبل السعي".

لا يخرج بقاء المسلم في مجتمعه عن هذه الصور الأربعة. وينبغي علينا أن نستفيد استفادة تامة من كل هذه النماذج باعتبار أنها التصور الذي ارتضاه الله ﷻ كتطبيق معصوم لمراده في هذه الأرض. يجب

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٢٥ من مجلة حراء. والمقال تم تفريغه من محاضرة ألقاها فضيلة المفتي في مؤتمر "هدْيُ خير العباد" المنعقد في إسطنبول في تاريخ ٩-١٠ أكتوبر ٢٠١٠ من قبل مجلة حراء.

[*] مفتي الديار المصرية السابق.

علينا أن نعي حقائق هذه النماذج وأنها صالحة للاستفادة منها للمسلم بحسب حاله ومقامه، وأن نفهم سنة سيدنا رسول الله ﷺ من خلال سيرته ومواقفه. وكما أخرج ابن حبان في صحيحه عن سيدنا رسول الله ﷺ قال: "من حكمة آل داود أن يكون المؤمن مدركًا لشأنه عالمًا بزمانه".

في مكة كانت حكومتها والمتصرفون فيها من المشركين، وكان المسلمون قلة وكان الشعب يكره الإسلام والمسلمين ويوقعونهم في الأذى.. وكانت الحكومة في الحبشة غير مسلمة، إلا أنها عادلة لا يُظلم عندها أحد، تحترم المسلمين وتقيمهم فيما بينهم حتى إنهم شعروا بالمواطنة.

وفي المدينة في العهد الأول كانت الحكومة مسلمة، ولكن الشعب متعدد الطوائف؛ منهم اليهود ومنهم المشركون والوثنيون والمنافقون، ومنهم المسلمون.

وفي المدينة في عهدها الأخير، قلّ هذا التنوع فلم يبق أحد من المشركين، ولكن بقي كثير من اليهود كما تفيد بذلك النصوص الصحيحة.

نموذج مكة: الصبر والتعايش

يصف سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ما كانت عليه مكة وهو يخطب أمام النجاشي فيقول: أيها الملك، كنَّا قومًا أهلَ جاهلية، نعبد الأصنامَ، ونأكل الميْتةَ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحامَ، ونُسيء الجِوارَ، يأكل القويُّ منّا الضعيفَ... (رواه أحمد).

نريد أن نتأمل حياة رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها مع هذا الجو الكئيب من فعل المعصية، كيف كان يتعامل معها ﷺ؟ كان متعايشًا مع هؤلاء القوم على ما هم فيه من سوء، ولا يزال يقوم بواجباته الاجتماعية -إن صح التعبير- في وسط هؤلاء.

وتبيّن ذلك ما تصفه به السيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها إذ تقول: كلاّ أبشرْ، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لَتصلُ الرحم، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحمِل الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقِّ. (رواه البخاري)

ويتحالف النبي ﷺ مع قبائل من قريش، تعاهدوا على نصرة المظلوم قبل البعثة؛ فقد تداعت قبائل من قريش إلى حِلفٍ فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدْعان لِشرفه وسِنِّه وكان حِلْفهم عنده بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسَدُ بن عبد العُزّى، وزهرةُ بن كِلاب، وتَيْمُ بن مرّة، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلَمه حتى تُردّ عليه مظلِمتُه. فسمّتْ قريش ذلك الحلف بـ"حلف الفضول".

وكان سيدنا رسول الله ﷺ يقول: "لقد شهِدتُ في دار عبد الله بن جُدْعان حلْفًا ما أحِبُّ أنّ لي به حُمْرَ النَّعم، ولو أُدْعى به في الإسلام لأَجَبْتُ"، وكان يتمسك ﷺ بهذا الحلف بعد البعثة ويلجأ إليه وكان يعمل بمقتضاه حتى بعد ما عادته قريش وضيّقت عليه.

المقصود أنه يجب علينا أن نكون كرسول الله ﷺ إن أحاط بنا ما أحاط به في مكة من الصبر والتعايش.. وأحاديث كثيرة تؤكد ذلك،

منها: "إذا رأيت هوىً متَّبعًا، ودنيا مؤْثَرةً، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، وشُحًّا مُطاعًا، فعليك بخاصة نفسك ودعْ عنك أمر العامة" (وراه البخاري).. يتعايش ويصبر ولا يترك المبادئ، لأن الوسط الذي حوله ليس ملائمًا، بل هو وسط ظالم وسط منحرف.

روايات كثيرة نجدها في عيون الأثر لابن سيد الناس وغيره عن قصة أبي جهل، الذي اشترى من شخص أجمالاً ثم بعد ذلك لم يسدد له، وذهب إلى قريش فجلست تتضاحك، ونصره رسول الله ﷺ.

إذا ما قرأنا هذه السيرة العطرة وجدناه ﷺ يساعد أبا طالب ويأخذ عليًّا ﷺ ليربيه في بيته.

ونرى أن الذين رفضوا التعايش، وجلسوا في عذاب المسلمين كانوا هم المشركون. ظل رسول الله ﷺ يصلّي في الكعبة وفيها أكثر من ثلاثمائة وستين صنمًا، لم يحاول أن يهدم صنمًا واحدًا منها بالرغم من أنها ضد التوحيد الخالص الذي جاء به. كيف كان يسجد رسول الله ﷺ في صلاته؟ علينا أن نتعمق وأن تتداعى أفكارنا في رسم صورة رسول الله ﷺ في مكة؛ كيف كانت تصرفاته، وأن نستنبط من كل نص شيئًا يُعينُ المسلمَ الذي قُدِّر له أن يعيش في مجتمع يكره الإسلام والمسلمين، حيث ظلت هذه الأصنام إلى عام الفتح في العام الثاني للهجرة.

نموذج الحبشة: الوفاء والمشاركة

في النموذج الثاني في مجتمع الحبشة، وهي التي قال فيها رسول الله ﷺ بعدما رأى الأذى يحيط بأصحابه ﷺ: "لو خرجتم إلى

أرض الحبشة فإن بها ملكًا عظيمًا لا يُظلم عنده أحد" (رواه البيهقي). وكان أول من خرج عثمان بن عفان ﷺ مع زوجه رقية بنت سيدنا رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب وغيرهم كثير رضوان الله عليهم أجمعين... فيقول لهم ﷺ: "حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه" (رواه البيهقي).

وكلمة جعفر بن أبي طالب ﷺ إلى النجاشي، كلمة بليغة تحتاج إلى درس طويل تحتاج إلى أن نستنبط منها أحكامًا تفيد المسلم في هذه البلاد، التي تكون فيها الحكومات لا تعترض على الإسلام، وتساعد المسلمين وترضى بهم كمواطنين... كيف يعملون وكيف يتعاملون؟ ما مفهوم المواطنة؟ حتى في العصر الحديث... كل ذلك يمكن أن يؤخذ من تجربة الحبشة.

ابن عم النجاشي ينازعه المُلْكَ.. فتقول أمّ سلمة أمّ المؤمنين فيما بعدُ ﷺ: فواللهِ ما علِمْتُنا حَزِنّا حُزْنًا قطُّ كان أشدَّ علينا من حُزْنٍ حَزِنّاهُ عند ذلك.. وفي رواية أنهم عرضوا أن يحاربوا معه فرفَض. فترصدوا المعركة.. فلما انتصر قالت: فواللهِ ما علِمْتُنا فرحنا فرحة قط مثلها.. ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وكوّن الدولة، آثر كثير من الصحابة البقاء في الحبشة. إنه لما التجأ المهاجرون الأولون إلى الحبشة، فأكرمهم النجاشي وبقوا هنالك آمنين من اضطهاد قريش. ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، عاد أربعون من المهاجرين والتحقوا به بالمدينة المنورة، وبقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي. وتزوج رسول

الله ﷺ أم حبيبة رضي الله عنها، تزوجها وهي بأرض الحبشة، وكان قد خطبها له النجاشي. فلما خلّف النجاشي ولدًا أسماه عبد الله، وأرضعته أسماء بنت عميس امرأة جعفر مع ابنها عبد الله، فكانا يتواصلان بتلك الأُخوَّة. ويقول السهيلي أيضًا: ومن رواية يونس عن ابن إسحاق، أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان ابنًا للنجاشي نفسه، وأن عليًّا وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين. وكلام كثير في النموذج الثاني.

ويروي البادوري في "أنساب الأشراف"، أن الزبير بن العوام رضي الله عنه هاجر إلى الحبشة في المرتين، وقاتل مع النجاشي عدوًّا له؛ يعني مرة رفَضَ ومرةً قاتلوا معه.

نموذج المدينة في المرحلة الأولى: الانفتاح والتعاون

ولو ذهبنا إلى المدينة المنورة، لوجدناها تتكوَّن من اليهود والمشركين والمنافقين والمسلمين، وفي كل مجموعة من المجموعات أحكام فقهية لا تتناهى إذا ما قرأنا السيرة مع السنة. أخُصُّ منها شيئًا لطيفًا، وهو أن النبي ﷺ لما حكَّم سعد بن معاذ في اليهود... فإنه نظام قضائي لم تصل البشرية إليه في يومنا الحالي وهو أن يختار المتّهَمُ قاضيه. وعلينا أن ندرك أن هذا كان حكمًا قضائيًّا لجريمة الخيانة العظمى. ولا يمكن أن يصنّف لإبادة المجموعات ولا لإبادة الشعوب، بل هو تم بناء على النظام القانون الشرعي والاتفاقات المتفق عليها كما هو في صحيفة المدينة. والجديد أنْ يختار المتّهَمُ نفسُه قاضيَه.

في هذا الجانب، نرى كيف كانت مسألة السلام على أهل الذمة واختلاف العلماء فيها، وكان سفيان بن عيينة والأوزاعي وغيرهم يحيزون السلام، لأن هذا كان لسبب وكان لغرض دَرْءِ الفتنة، حيث إنهم كانوا يمرّون فيقولون "السام عليكم"، أي الهلاك عليكم، وستحدث فتنة.

ومع المنافقين يكفي أن الله ﷻ أباح له ﷺ قتل المنافقين فلم يقتل واحدًا أبدًا، بل قال: "لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابَه" (رواه البخاري). في سورة الأحزاب: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ۞ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾(الأحزاب:٦٠-٦١).

وبالرغم من ذلك لم يقتل ﷺ أحدًا أبدًا. فهناك فرق بين الجواز وبين التنفيذ، وبين المباح وبين المتاح. وهذا درس نتعلمه من سيدنا رسول الله ﷺ. ليس صحيحًا أبدًا أن الإسلام أو المسلمين يعترفون أو يقرون بمسألة تطهير الأرض وتوحيد الدين وإكراه الناس على الدخول في دينهم أو الرحيل من أرضهم... لم يحدث هذا أبدًا، لا في عصر النبي ﷺ ولا في تاريخ الإسلام النظيف.

نموذج المدينة في عهدها الأخير: العدل والوعي قبل السعي

النموذج الرابع هو المدينة في عهدها الأخير، يبين ذلك حديث في البخاري أن النبي ﷺ "توفي ودِرْعُه مَرْهونةٌ عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير".

استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدًا على العالمين -في قسَم يقسم به- فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم اليهوديَّ، فذهب اليهوديُّ إلى رسول الله ﷺ فأخبره بالذي كان من أمره وأمر المسلم، فقال النبي ﷺ: "لا تخيّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله" (رواه البخاري).

حدث بين طعمة بن عمير من المسلمين وزيد بن سمين من اليهود مشكلة وكان الظالم فيها المسلم، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء:١٠٧)، وهنا عدْل النبي ﷺ في صفّ اليهود ضد المسلم، لأن العدل أساس الملك، ولأنه يريد أن يخرجنا من الظلمات إلى النور: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨). علّمنا المبادئ، وعلّمنا الأخلاق، وعلّمنا ما لو اطلع عليه العالمون لآمنوا به ﷺ. كان رسول الله ﷺ صبورًا علّمنا الصبر، وعلّمنا كيف نتعامل مع الناس برفق، وألا نظهر فيهم آراءنا.

فكان النبي ﷺ يتعايش حتى مع أشر الناس.. فعن عائشة أمّ المؤمنين ﵂ أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فلما رآه قال: "بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة"، فلما جلس تطلَّقَ النبيُّ ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجلُ قالت له عائشة ﵂: يا رسول الله حين رأيتَ الرجلَ قلتَ له كذا وكذا ثم تطلَّقْتَ في وجهه وانبسطْتَ

إليه، فقال رسول الله ﷺ: "يا عائشة متى عهدْتني فحَّاشًا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من ترَكَهُ الناسُ اتِّقاءَ شره". (رواه البخاري)

أما ما حدث في حديبية، وما نحتاجه من وضع من أسس للمفاوضات والخطط الإستراتيجية، وما حدث مع الوفود التي أتت من كل مكان... حتى إنّا سمعنا أن وفدًا من المجر -وهذا ليس في كتبنا وإنما في واقعهم من هونغريا- جاءوا فأسلموا وكان عددهم مائة، وهم أصل المسلمين في المجر إلى اليوم. وحتى سمعنا في المصادر الصينية أن وفدًا من الصين أتى وأن بعضهم رسم النبيَّ ﷺ خلسة، وأن هذا موجود في المصادر الصينية إلى الآن. كيف تعامل رسول الله ﷺ مع كل هؤلاء الوفود، كما أن هناك عامًا سمي بـ"عام الوفود".. هذه المعاملات؛ الحديبة، والوفود، ورسائل النبي ﷺ للخارج، يمكن أن يؤسَّس بها علم بحاله لما اشتمل كل لفظ منها على القواعد والمبادئ والمناهج التي يمكن أن نحييها في عصرنا وأن نطبقها في واقعنا.

يجب علينا أن ندرس سيرة رسول الله ﷺ مع سنته في نسق واحد، ونحاول أن نستخرج منها مكونات الشخصية المسلمة سواء من الناحية العقلية أو النفسية، أو من ناحية المناهج التي يلتزمها في تقويمه للمواقع، وإنشائه للعلاقات مع الآخرين، وفهمه للأمور، ومواجهته للعالمين عيشًا ومشاركة وتفاهمًا وتعاونًا وعبادة لله وعمارة للأرض وتزكية للنفس، حتى يكون قد اتخذ النبيَّ ﷺ أسوةً حسنة، وحتى يحقق التكليف والتشريف في مقام الشهادة على العالمين: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

مسؤولية الإنسان[1]

أ.د. محيي الدين عفيفي[*]

ناط الإسلام بكل فرد من أفراده مسؤولية وتبعة نحو نفسه وأهله وأمته، وعلى قدر منزلة الشخص وما وُكل إليه من مهام تكون مسؤوليته. وإن فقه المسؤولية ينبع من كون الإنسان صاحب رسالة في هذه الحياة، ولذا فهو مسؤول عن جميع أقواله وأعماله، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(الصافات: ٢٤)، فكل إنسان مسؤول عن أعماله أمام الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الحجر: ٩٢-٩٣).

وبيّن رسول الله ﷺ تنوع وشمول المسؤولية في المجتمع، وعدم اقتصارها على شخص دون آخر أو جهة دون أخرى؛ لأن هذا الأمر مشترك بين الناس، ففي الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعيةٌ على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة

[1] نشر هذا المقال في العدد ٧٠ من مجلة حراء.

[*] الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية / مصر.

عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ **وكلكم مسؤول عن رعيته**" (رواه البخاري).

قال الإمام ابن حجر العسقلاني: "قال الطيبي في هذا الحديث: إن الراعي ليس مطلوبًا لذاته، وإنما أقيم لحفظ ما استرعاه المالك، فينبغي ألاّ يتصرف إلا بما أذن الشارع فيه"، "وقال: دخل في هذا العموم، المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد، فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات فعلاً ونطقًا واعتقادًا، فجوارحه وقواه وحواسه رعيته"[1]؛ ويُفهم من هذا الحديث أن المسلم مسؤول مسؤولية عينية عن مصلحة المسلمين في دوائر قد تتسع وقد تضيق بحسب الموقع الذي يكون فيه.

إن استشعار المسؤولية مأمور به في الإسلام؛ ليعمل الإنسان قدر طاقته للنهوض بتبعات ما أُلقي على عاتقه، ويحذر التهرب من مسؤولياته ليُلقى باللائمة والتبعة على غيره. إن القيام بالواجبات والمهام مسؤولية مشتركة، كل امرئ بحسبه؛ هذا بتعليمه وكلامه، وهذا بتخصصه، وذاك بماله أو وجاهته، ودائرة كل راع تختلف في السعة والضيق حسب وضع الراعي ومكانه الذي يتبوأه.

والرعاية التي يفرضها الإسلام على الراعي في دائرة الأسرة، ليست رعاية الإنفاق وتدبير الأمر فقط عمن يرعاهم الراعي في أسرته، بل مع ذلك رعاية التوجيه لهؤلاء، والملاحظة الدقيقة المستمرة لسلوكهم. والإسلام إذ يوصي بقيام كل راع بأمر رعيته وبالتعاون

[1] فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد علي بن حجر العسقلاني، ١٢١/١٣.

في هذه الرعاية، يقر أيضًا المسؤولية الشخصية والفردية على كل راع؛ ليؤكد أمر القيام بهذه الرعاية وبالتعاون فيها، وهذه المسؤولية الشخصية تعطينا "أن الإسلام يطلب من المؤمنين به، أن يكون كل واحد منهم بَنّاء في أمر نفسه، وفي أمر أسرته، وفي أمر مجتمعه"[1].

واقع الأمة وغياب المسؤولية

تحولت الأمة إلى طوائف ومجموعات تتمرس خلف أفكارٍ وآراء تنم -أحيانًا- عن عصبية وتشدد لدى بعض الفئات التي تكتفي بقراءة ذاتها بمنأى عن عالمها، مع التعصب لرؤيتها ونظرتها واعتبار تدينها دينًا مقدسًا لا يمكن إعادة النظر فيه، وقد حذر القرآن الكريم من مغبّة الوقوع في هذا المستنقع، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾(الروم:٣١-٣٢). إن آيات القرآن صريحة في بيان دور الإنسان وإعطائه الحرية، ورُتِّبت على هذه الحرية مسؤولية الثواب والعقاب، فلا مسؤولية بلا حرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

إن الله تعالى ربط تغيير الحال بإرادة الإنسان ونشاطه، ولذا فإن أيّة محاولة للتغيير في واقع الأمة، لا بد وأن تبدأ بالإنسان وتركز على بنائه الفكري؛ لأننا بحاجة إلى الاهتمام بعقل الإنسان وفكره، فهو المفتاح الحقيقي لأي تقدم، وهذا ما جعل مالك بن نبي يقول: "إن الحضارة لا تنبعث -كما هو ملاحظ تاريخيًّا- إلا بالعقيدة الدينية

---

[1] الإسلام في حياة المسلم، لمحمد البهيّ، ص:٢٨٨.

-هدايات وبلاغات الوحي- فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعةً ومنهاجًا، وهي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قدِّر للإنسان ألا تُشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدًا عن حقبته، إذ حينما يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تشكل له مركز الرؤية تتفاعل معها عبقريته"[1].

إن الإسلام جعل مسؤولية التغيير الاجتماعي تضامنية وفرضًا من فروض الكفاية، وجعل مسؤولية السقوط جماعية أيضًا، وشرع مسؤولية الحراسة والرقابة العامة للمجتمع، قاله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:١١٠).

لقد كانت خطوة الإسلام الأولى، هي تغيير ما بالأنفس وممارسة التحول الثقافي: "إن أسباب ارتقاء المسلمين في الماضي كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية، التي تحولت قبائل العرب بهدايتها من الفُرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن القسوة إلى الرحمة.. وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحًا جديدة، صيَّرتهم إلى ما صاروا إليه من عزوة ومنعة"[2]. فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقي يجب علينا أن نبحث عنه

---

[1] رؤية في منهجية التغيير، لعمر عبيد، ص:٢٨-٣٠.

[2] ماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، للأمير شكيب أرسلان، ص:٤١-٤٢.

وننشده.. أهو باق؟ أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ولم يبق من الإيمان إلا اسمه، ومن الإسلام إلا رسمه، ومن القرآن إلا الترنم به دون العمل بأوامره ونواهيه، إلى غير ذلك؟

لقد فقد المسلمون السبب الذي ساد به سلفهم، إن السبب الذي به استقام هذا الأمر، قد أصبح مفقودًا بلا نزاع وإن كان بقي منه شيء كباقي الوشم في ظاهر اليد.

فلو وعد الله تعالى المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لحقّ لنا أن نقول أين عزة المؤمنين من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون:٨)، ولو كان الله قد قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الروم:٤٧)؛ بمعنى أن ينصرهم بدون أدنى مزيّة فيهم سوى أنهم يعلنون كونهم مؤمنين، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر. لكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، ولكن المسلمين هم الذين تغيروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

إن الأمة الإسلامية اليوم تعيش مرحلة "القصعة" التي أخبر عنها النبي ﷺ بقوله: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها"، فقال قائل: ومِن قلّةٍ نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوَهَن"، فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْن؟ قال: "حبُّ الدنيا وكراهية الموت" (رواه أبو داود).

فمؤشرات الوهن الحضاري ومسبباته كما أشار إليها الحديث، حب الدنيا والإفراط الضخم في الاستهلاك، والتزاحم على المطالبة بالحقوق والهروب من القيام بالواجبات وعدم الشعور بالمسؤولية الخاصة والعامة، وكراهية الموت والرغبة في الإخلاد في الحياة.

ولن يتحقق أي نهوض أو بناء إلا بتصويب تلك المعادلة، وذلك إنما يكون بإعادة بناء الشخصية المسلمة اليوم، وصنع الإنسان المنتج، والتركيز على إنسان الواجبات لا إنسان الحقوق، فالأمة تحتاج إلى من يعطي ويتفانى في العطاء.

لقد أدى ضعف الشعور بالمسؤولية إلى حالة من الاضطراب في الموازين والخلط في الأوراق، فمن أبجديات المنطق الأولى أن الحكم على الشيء فرع من تصوره، وأن من أبرز سمات العصر الذي نعيشه تقسيم العمل والتخصص، بل التخصص الدقيق في فروع المعرفة الواحدة، أما واقع المسلمين فلا يزال الرجل الملحمة الذي يدعى أنه فهم كل شيء هو الشخص المميز، فهناك من المشتغلين بالعلوم التجريبية من يقتحمون ساحة التخصص الشرعي الدقيق التي لا يبلغها إلا من أفنى عمره في بحثها، وعلى الجانب الآخر نرى بعض المشتغلين بالأمور الشرعية يُصرون على اقتحام ساحات العلوم التجريبية الدقيقة.

إننا نرى فئة ممن اختاروا طريق العلوم التجريبية من المتدينين، يشعرون بعقدة الذنب الداخلي بسبب اختيارهم لتوهُّم أن هذا التخصص لا يقع في دائرة العبادة، لذلك نجد مجموعة منهم تتحول من ممارسة التخصص العلمي سواء كان في الطب أو الهندسة أو غير

ذلك للعمل في مجال الدعوة إلى الله، وكأن الكسب العلمي الذي يؤدي إلى تمكين الأمة، ليس من الدعوة إلى الله!

والأغرب من ذلك، أن يعتقد البعض بأن الله جعل الكفار -على حد زعم من يقول- في خدمتنا، فهم يتولون الصناعة لاستهلاكنا، أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية وكأن معرفة الحرفة والصنعة والإنتاج ليس من العلوم الإسلامية والتكاليف الشرعية! وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة وهُم في موقع الأسوة والقدوة.

وكيف يقرأ هؤلاء قوله تعالى في بيان نعمه على سيدنا داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾(سبأ:١٠)، ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾(سبأ:١١)، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾(الأنبياء:٨٠)، وكيف يقرأون قصة ذي القرنين في القرآن، الذي مكّن الله له في الأرض باتّباعه للأسباب[1].

إن القرآن الكريم عمل على صياغة الفكر الإسلامي صياغة واقعية جعلت له منهجية عملية متميزة في تاريخ الفكر الإنساني، حيث وجّه العقل في سبيل إدراك حقيقة الغيب وسنن الكون، إلى مظاهر الطبيعة المادية وواقع النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

لقد استشعر المسلمون المسؤولية فنشأت لديهم خاصية في الفكر جعلت الواقع الكوني والإنساني منطلقهم لكل معرفة، وبرعوا في العلوم الطبيعية، وتميزوا في المجالات الشرعية، وكانت هذه الواقعية

---

[1] تأملات في الواقع الإسلامي، لعمر عبيد، ص:٣٤-٤٢.

أساسًا للمنهج التجريبي الحديث الذي قامت عليه الحضارة الغربية حينما نقله "روجر بيكون" (Roger Bacon) عن التجريبيين الإسلاميين[١].

إن وعي المسلمين وإدراكهم لدورهم الإنساني والحضاري، جعلهم على درجة عالية ودقيقة من الفهم والاستيعاب، فتكونت لديهم صفة المقارنة والنقد، واستطاعوا أن يستوعبوا علوم الأوائل، وأن يخضعوها للبحث والتمحيص والمقابلة مع التعاليم الإسلامية، دون أحكام مسبقة أو استعلاء أو تعصب.. فكانت لهم رؤى نقدية ثاقبة، وقد ظهر ذلك واضحًا فيما كتبه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في "مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة".

ولكن عند ضعف الوعي وضعف الشعور بالمسؤولية، يضيق الأفق ولا تتسع العقول للآراء المخالفة في العقيدة أو المذهب أو الفكر، ويحدث الرفض للآخر. يقول الشيخ محمد الغزالي: "لقيت متعصبين كثيرين، ودرست عن كثب أحوالهم النفسية والفكرية، فوجدت آفتين تفتكان بهم، الأولى العجز العلمي أو قلة المعرفة؛ هؤلاء يحفظون نصًا وينسون آخر، أو يفهمون دلالة للكلام هنا ويجهلون أخرى، وهم يحسبون ما أدركوه، الدين كله.

والآفة الثانية في التعصب المذهبي، سوء النية ووجود أمراض نفسية دفينة وراء السلوك الإنساني المعوج، ويغلب أن تكون آفات الظهور والاستعلاء أو رذائل القسوة والتسلط.

أرأيت إلى الشخص الذي قال لرسول الله ﷺ "اعدل، هذه قسمة ما

---

[١] تجديد الفكر الديني في الإسلام، لمحمد إقبال، ص:١٤٨.

أريد بها وجه الله"! إنه -والله- ما يغار على عدالة، ولا يأبى على جور، إنه طالب ظهور عن طريق الغيرة على القيم، يريد أن يقال عنه: لفت معلم الإنسانية إلى ما فاته، وأدرك ما لم يدركه، وهو صاحب الرسالة العظمى.

إنه هو وأمثاله كما قال رب العالمين: ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(غافر:٥٦). ولقد تألم رسول الله ﷺ لهذا الكلام وقال لصاحبه: "ويحك! من يعدل إذا لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل".

والواقع أن بين المتعصبين لبعض الآراء والمذاهب ناسًا حظهم من الإيمان بالغ التفاهة، ولذا اجتمعت الآفتان معًا على افتراس الأمة الإسلامية المغلوبة.

"إن القرآن الكريم عمل على قدح زناد الفكر البشري بنقاشه ثوابت الجاهلية، وهكذا في كل القضايا الاعتقادية والخلقية والاقتصادية، مما أوجد مفاهيم وحقائق وأحاسيس لها أدب يعبر عن وحيها"[1] ولكن عندما غُيِّب وعي الإنسان وضعُف شعوره بالمسؤولية نحو نفسه وأسرته ووطنه ودينه -بسبب التعصب والغلو والتشدد- انتشر التكفير والتفجير، وأصبح القتل يمارس باسم الإسلام، واستغلت النصوص الشرعية لاستحلال إزهاق الأرواح والأموال والأعراض، مما أدى إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

---

[1] لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، للأمير شكيب أرسلان، ص:٤١-٤٢

القيم الإنسانية وضابط الدين[1]

د. الحبيب علي الجفري[*]

الحديث عن الإنسانية قبل التدين، والحاجة إلى منظومة قيم أعلى من الإنسان وقابلة للتطبيق الإنساني، يقودنا إلى مفهوم القدوة في عصر أصبح تأثر الناس بالصور الإدراكية الذهنية لرموز الفن والسياسة والكرة وغيرها، من المسلمات البدهية. هذا وقد أوجد الله ﷻ الأنبياء والرسل ليكونوا قدوة لأممهم، أي بمهمة تجسّد الرسالة في الرسول ليُنظر إليه ويؤخذ به، ثم كان سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ورحمة الله للعالمين، النموذج الأعظم في مفهوم الإنسان الكامل.

وإذا كان الإنسان مكونًا من روح وعقل وقلب ونفس وجسد، فإن روحه ﷺ أنقى وأرقى وأعظم الأرواح صلةً بالملك الفتاح، وصاحب الروح التي تجلّى الله ﷻ على صاحبها، فنظر إلى أنواره القدسية وسبحات وجهه الكريم في ليلة المعراج، وهو صاحب الروح الأشد تعلقًا بالله شوقًا ومحبة. ثم أفاض الروح النبوي الشريف على الذات النبوية المطهرة، فكان العقل الأرشد في هذا الوجود، وكانت النفس

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٩ من مجلة حراء.

[*] عالم وداعية يمني، ورئيس مجلس إدارة مؤسسة طابة بـ"أبو ظبي".

الزاكية المزكية للنفوس، وكان القلب الذي نزهه الله تعالى ، وكان الجسد مثالاً في الاستقامة، فرأينا فيه ﷺ مفهوم الإنسان الكامل.

لهذا نجد في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾(الكهف:١١٠) ثلاث خطابات: خطاب الإنسانية البشرية، فخطاب الاختصاص والعصمة وسابق الاصطفاء، ثم خطاب التوحيد، الأمر الذي يعيدنا إلى عنوان "الإنسانية قبل التدين" بذات الترتيب. فجانب "مِثْلُكُمْ" في البشرية هو محل الاقتداء، ومظهر كمال الخَلق والهيئة، وسمو الخُلق والتعامل.

نظرة الرسول إلى الوجود

لقد كانت رحمته ﷺ للعالمين تقتضي أن ينظر للوجود كله بعين الرحمة، يتعامل مع الكل على أساس الرحمة، هذه الرحمة التي تجسدت في أقوال وتصرفات.

كان ﷺ بكمالٍ ينظر فيه إلى السوي وغير السوي في حالته البشرية، ينظر بهذا المنظار إلى العاصي والمذنب، فيؤتى بصحابي تكرر منه شرب الخمر، لدرجة أن يقول رجل: اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به، فيقول النبي ﷺ: "لا تلعنوه، فواللهِ ما علمْتُ، إنه يحب اللهَ ورسولَه" (رواه البخاري).

لقد دافع عن السكّير، لأن مقتضى الإنسانية ألّا نجعل خطأه مبررًا لهتك آدميته وإنسانيته، وأن نبحث عن جوانب النور في داخل هذا الإنسان وإن كان في ظاهره ظلمة.

ثم عندما بال أعرابي في المسجد، فثار إليه القوم فانتهروه

وأغلظوا له، فقال النبي ﷺ: "دعوه وأهريقوا على بوله دلوًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين" (رواه البخاري)، فعلّمنا تعظيم الساجد قبل المسجد، والإنسان قبل البنيان. وكان ﷺ -كما في الشمائل- لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي له حاجته.

بل أورد الواقدي في مغازيه أن رسول الله ﷺ في الطريق إلى مكة، أمر رجلاً من أصحابه أن يقوم بحذاء كلبة ترضع صغارها، وألا يعرض لها أحد من الجيش ولا لأولادها، وفي سنن أبي داود يقول الصحابي الجليل: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فَرخان، فأخذْنا فَرخها، فجاءت الحُمَّرة فجعلتْ تَفْرُش، فجاء النبي ﷺ فقال: "مَنْ فَجَعَ هذه بولدها رُدُّوا ولدها إليها".

ثوابت القيم الإنسانية

قد يستنتج البعض أنه يمكن للإنسانية أن تحيا بقيم وبمبادئ وأعراف إنسانية دون حاجة إلى دين، بدليل ما نراه من إنسانية وآدمية في الدول التي نعتبرها متقدمة، لكن أغلب تلك الدول قبلت أن تتنازل عن أسمى قيمها الليبرالية، مقابل الحصول على الأمان عندما شعرت أن هناك ما يتهدد أمانها أو حتى ثقافتها وأسلوب حياتها، فلم يعد كافيًا مجرد الحديث عن ضمير أو عن أعراف، ولا عن قوانين إنسانية ضابطة، لأن مسألة الأعراف تلك -إن لم ترتبط بأصل ثابت خارج عن ذات الأفراد والجماعات والشعوب- تتغير بتغير الأزمنة والثقافات والأمكنة، مما يطرح التساؤل حول ما هو المعيار؟ كيف

يمكن أن نحافظ على إنسانيتنا ونعمل على ترقيتها والسمو بها؟

لا شك أن هناك مسلمات وثوابت من أمهات الأخلاق -قبل أن تنتكس الفطرة- كاستحسان الصدق والأمانة والعدل، واستهجان نقيضها من الكذب والخيانة والظلم.. وهي أمور ترتبط بالأحكام الشرعية القطعية التي ليس فيها مجال كبير للاجتهاد، وتعد قليلة قياسًا على الأحكام الاجتهادية الظنية.

هذه الأحكام المتعلقة بثوابت القيم الإنسانية، تتصل بالكليات الخمس التي تمثل مقاصد الشريعة، وتتغيا "حفظ" وحماية الإنسانية في مجالات الدين والنفس والعرض والعقل والمال. إلا أن ما يرتقي بالإنسانية، هو معنى من مجاهدة النفس بناء على تلك القيم الثابتة، ومن الأذواق الروحية القلبية التي بها يكون الإنسان إنسانًا. ذلك المعنى الذي أدخل امرأة الجنة على الرغم من انحرافها الظاهر، لأنها سقت كلبًا يُطيف بِرَكِيَّة يكاد يقتله العطش.. وأدخل أخرى النار في هرة حبستها فلم تطعمها ولم ترسلها فتأكل من خشاش الأرض. فهنا الارتباط المقصود لظاهر الأحكام بالمعاني القلبية في لحظة تيقّظ أو غفلة الرحمة الإنسانية. هذا المعنى موجود في تفسير بعض العارفين قولَه تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾(الرحمن:١٩-٢٠) بأنها التقاء بحر الشريعة من اِفعل ولا تفعل، ببحر الحقيقة من المعاني الروحية والقلبية، وأن المقصود بـ"البرزخ" هو إنسان مستخلف في أرض ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾(الرحمن:١٠).

كيف يمكن أن تُطبق هذه المعاني في عالم الأرض؟

نحن بحاجة إلى نموذج إنساني نرى فيه هذا الكمال، لهذا أرسل الله الرسل الكرام لنرى فيهم أنموذج الكمال الإنساني الذي يجمع بين قيم الأخلاق والاتصال بالروح الأقدس العالي، ورغبات الإنسان وعمارة الكون الذي يعيش فيه.

ثم جاء الحبيب المصطفى ﷺ مَجْمَعًا لمظاهر كمال الإنسانية، جاء يعلمنا أن الإنسانية قبل التدين، عندما أقر صفات راقية في بشر لم يكونوا على دين الإسلام، فأكرم ابنة حاتم الطائي لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.. يفك العاني، ويُشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قط.

فقال: "لو كان المطعم بن عدي حيًّا، ثم كلمني في هؤلاء (أسارى بدر) لتركتهم له" (رواه البخاري)، إكرامًا له وقبولاً لشفاعته؛ فإنه كان ممن قام في نقض صحيفة المقاطعة بمكة، وأجار الرسول ﷺ عند رجوعه من الطائف، بل وسمح لشاعره حسان بن ثابت برثاء الرجل الذي مات على كفره بقصيدة مطلعها:

أيا عينُ فابكي سيّدَ القوم واسفحي

بدمْعٍ وإنْ أَنْزَفْتِه فاسكبي الدّمَا

إذن ما هو المعيار؟ المعيار الشرعي السماوي الذي يأتي بالثوابت، التي جاء بها الحق ﷻ وعلّمنا إياها، وهي متصلة بهذه الفطرة، ثم البحث من وراء المعاني القلبية التي فيها.

لماذا تحتاج القيم الإنسانية إلى ضابط الدين؟

ألا يكفي لضبط الإنسانية أن نتحدث عن معايير الأخلاق العالمية، أو الأعراف والضمير الإنساني، أو المبادئ العامة التي أقرتها الأمم المتمدينة؟

ألا ترى أن الدول العلمانية، أو تلك التي أبعدت الدين عن مجالها العام، قد كرست منظومة قيم وأخلاقيات حفظت آدمية وحقوق الإنسان على نحو لا نجده في أكثر الدول إيمانًا بالدين وتشددًا في الالتزام بأوامره؟

ألا نشاهد ما يجري في دول ترفع شعار الدين من مذابح جماعية مروعة تصدم الضمير العالمي، وحروب لا تنتهي يدفع ثمنها الضعفاء من الولدان والنساء؟

إن هذا كله قد يكون صحيحًا في ظاهر الأمر. ودعونا نعترف بأن هناك انتهاكات جسيمة، واعتداءات صارخة على كل ما يمثل القيم والأخلاقيات وإنسانية الإنسان وإفساد الأرض.. جرت كلها باسم الدين وتحت رايته.

هل الرؤية المتحررة أو على الأقل غير الملتزمة بالدين، أوصلت البشرية إلى الرقي والإنسانية المطلوبة؟ لا جدال ولا نكير على أن القيم والأخلاقيات المكرسة في حقوق الإنسان وغيرها من الإنسانيات، قد أحدثت نقلة نوعية في عالمنا المعاصر. لكن هل هذا حفظ على الإنسان إنسانيته إلى الدرجة التي دفعته إلى إعمار الأرض؟

بلغة الأرقام: كم عدد الذين قتلوا في معارك وحروب بين دول

علمانية أو لغير سبب ديني؟ ولنكتف بمثال الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ لقد بلغ قتلى الأولى نحو ٨,٥ مليونًا، بل سجلت بريطانيا خسائر في أول يوليو ١٩١٦ وفي معركة واحدة نحو ٥٧ ألف إنسان، على حين تجاوزت أعداد قتلى الحرب الثانية عتبة ٦٦ مليون قتيل منهم ١٨مليونًا في الاتحاد السوفيتي، وما يزيد عن ٦ ملايين في بولندا، و٤ ملايين في ألمانيا، و٢ مليون في اليابان.

فهل كل الذين قتلوا في الحربين، خسروا حياتهم باسم الدين؟ أم إنها كانت صراعًا بين دول ربيبة حضارات شهدت ثورات تنويرية، وعاشت استقرار الرؤية الليبرالية العلمانية، وتنحية الدين عن صناعة قرار الحرب والسلم؟

لماذا لم تستطع المبادئ العامة التي أقرتها الأمم المتمدينة والأعراف الإنسانية كبح جماح التسلط والانتقام والتجبر وتدمير مقدرات الأرض؟

لقد كانت تلك الحروب وغيرها نتاج فلسفات مادية، أعلنت موت الإله وآمنت بالقوة قيمة عليا في التعامل الإنساني، وطوعت كل القيم لصالحها ابتداء من فلسفة "نيتشه"، ونظرية التطور الداروينية، من الإقرار بحق البقاء للأقوى، وأن صاحب القوة هو صاحب الحق، وتوظيف علوم العمران التجريبية لتأكيد التفوق العسكري ولو بالإبادة الكاملة للآخرين.

بل حتى الثورات التي نادت بالعدالة الاجتماعية، كانت نتيجتها

٢٩ مليون قتيل زمن الثورة البلشفية وفترة ستالين، على حين خسرت الصين نحو ٤٠ مليونًا من البشر.. فأين كانت المبادئ الإنسانية والضمير العالمي وقتها؟

لست أدافع هنا عن التطرف الديني بكل أشكاله ونسخه، ولا ألتمس له المبررات بحال، لكني أريد أن أفهم ما الذي يجعل اليمين المتطرف في حالة صعود في الغرب كذلك؟

كيف يتنازل الناس عن ثوابت الأخلاق والقيم الإنسانية بدعوى وجود تطرف ديني؟

إذا كان هناك استغلال للدين باسم الإنسانية في كثير من المجتمعات الليبرالية الآن، فكيف يمكن للإنسانية بقيمها المهتزة تلك، أن تنجح بدون ارتباط بقيم وأصول سماوية تضبط هذا الجانب من حركة الإنسان؟

إذن نحن بحاجة إلى بديل، نحن بحاجة إلى ميزان: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن:٩)، بل نحن بحاجة إلى ميزان فوق الإنسان.

القيم تنبع من إنسانية الإنسان

الأخلاق والقيم تنبع من إنسانية الإنسان. وتسترشد بنور الوحي السماوي لتكون منطلق تصرفات هذا الإنسان، كي تضبط رغباته، سواء البهيمية من الطعام والشراب والجنس، أو الرغبات السَبُوعِيَّة من التسلّط والقوة والتجبّر والتحكم والانتقام والبطش.. فمهمة الأخلاق والقيم، أن تتناول تلك الشهوات بميزان دقيق ضابط

يجعلها ترتقي بالإنسان وبالكون، وألا تتحوّل إلى وسيلة للقضاء على إنسانية الإنسان أولاً وبالتالي القضاء على تدينه، ومن ثم إفساد وتخريب الكون الذي يعيش فيه الإنسان.

لكن ما الذي يضبط هذه القيم ويحدد منظومة الأخلاق، التي يتصرف الإنسان من خلالها؟

• إذا كانت القيم هي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير.. فما الذي يضمن ارتقاء وعدم تضارب تلك القيم؟

• الأصل هو أن الإنسان يولد على الفطرة، أي تكون لديه هذه القيم الإنسانية (في أصلها الإيماني) في تعامله مع رغباته وشهواته.

إذا أراد الرضيع الطعام صاح وصرخ، فتستجيب له أمه بضمه إلى صدرها، ليرسخ في وعيه منذ الطفولة أن يعلن عن حاجاته بالصراخ ليتفاعل معه العالم المحيط، إلا أن حكمة الله تعالى جعلت تغذية هذا الإنسان الجسدية متصلة بتغذية إنسانيته.

فإذا غابت تلك المعاني واختل الميزان، وانفلت زمام شهوة الطعام والشراب ولو بطلب التنوع والإسراف، اختلت الإنسانية وسارع التدمير لكل مقدرات الطبيعة.

لهذا جاءت حكمة ضبط الرغبات، لأن الرغبات إذا انطلقت بغير ضوابط، تجور على القيم وتضر بإنسانية الإنسان، بغير وجود ميزان تتحوّل الرغبات من وسيلة لارتقاء الإنسان إلى وسيلة لهدم الإنسان.

هناك من يقول إن الضابط هو الدين، وهناك من يقول الإنسانية هي التي تحفظ القيم والأخلاق..

يقول سيدنا محمد ﷺ: "الناس معادنُ كمعادن الفضَّة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" (رواه البخاري)؛ بمعنى أن هناك خيرًا في أناس من غير مسلمين، وأن قيم الخيرية من أصل الفطرة والقيم الإنسانية. ففي الحديث، برهان على التفاوت الفطري في الطباع الخلقية وغيرها، وأن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقًا. وكذلك في حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "إن الأمانة نزلتْ في جَذْر قلوب الرجال" إبانة لحقيقة من حقائق التكوين الأخلاقي الفطري في الناس، وهذه الحقيقة تثبت أن الله سبحانه وتعالى أنزل خلق الأمانة في أصل القلوب، إذ الجذر أعمق شيء فيها، وهو الذي يغذي عواطفها وانفعالاتها.

مفهوم الوسطية في تقويم الفكر واستقامة السلوك(١)

د. سعيد شبار(*)

نتطلق في هذه التوطئة من التسليم بوظيفية المفاهيم وقدرتها التأثيرية الكبرى على التغيير، وإعادة بناء وتوجيه الأفكار والقناعات والأقوال والأفعال.. فذلك ما فعله الإسلام عندما جاء بمفاهيم جديدة تحمل قيمًا جديدة، أو عندما عدل كثيرًا من مضامين ودلالات المفاهيم التي كانت سائدة؛ فاستطاع أن يخرج إلى الوجود إنسانًا جديدًا ويبني حضارة جديدة، وأن يقدم نموذجًا متفردًا من اقتران العلم بالعمل، والعلوم بالقيم والإنسان، وأن يوجه ذلك إلى معالي الغايات وسامي الأهداف.. مما لم يكن خافيًا في عالمية الإسلام الأولى مشرقًا ومغربًا.

إن الأمر نفسه هو ما حاولَته وتحاوله قوى توسعية متعددة حينما بسطت نفوذها وهيمنتها -وما تزال تفعل- من خلال بسط شبكة مفاهيمها وإحلال نظم فكرها وقيمها في البلدان المستهدفة، حيث أحدثت حالات من الاستلاب والتبعية ما تزال قائمة إلى الآن. وليس

---

(١) نشر هذا المقال على جزئين في مجلة حراء؛ الجزء الأول نشر في العدد ٥٧، والثاني نشر في العدد ٥٨ سنة ٢٠١٨.

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال / المغرب.

مخطئًا بكل تأكيد من اعتبر أن الصراع الدائر بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات، هو في عمقه صراع مفهومي قيمي يتجلى في ميادين الفكر والسياسة والاقتصاد والثقافة.. لذا تبقى عملية نحت الألفاظ ومعانيها أو المصطلحات ومفاهيمها، من أدق الصناعات وأخطرها في عمليات التوجيه والتأثير.

ولنا أن نتساءل الآن، لماذا لم يعد للمفاهيم الإسلامية ذات التأثير والتأطير والتوجيه والتغيير الذي كان لها سلفًا؟ بل إن أحوال الأمة انقلبت إلى نقيض مراد الشرع من أحكامه وقيمه ومفاهيمه. فإن لم يكن ذلك في أصل المفهوم ومصدره يقينًا، فإنه في منهج الاستمداد منه والتمثل له، حيث يقع ذلك خارج مقصد الشرع ومراده بدلالات تشكلت في التاريخ وأطرها الخلاف. وذلك ما يدعونا إلى مراجعات عاجلة لمفاهيم كثيرة في ثقافتنا الإسلامية بنيت على غير هدى من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإن حملت آيات وأحاديث شواهد لها. ويكفي في بطلان ذلك ثمرة الفهم ونتيجته على مستوى الفكر والسلوك فيما نشهده من فرقة وتجزئة، وغلو وتشدد، وتحاسد وتباغض، وانتهاك لحرمة الدماء والأموال والأعراض.. إلخ.

فلا يمكن أن يكون الدين الذي يصون الأنفس ويحرم الدماء ويشدد العقوبة فيها، ويصون العقول والأموال والأعراض، ويعتبر ذلك من كلياته ومقاصده السامية التي ليست فروع وجزئيات الأحكام إلا خادمة لها، هو نفسه مدخلاً وتبريرًا لانتهاك ذلك كله. إنه اختلال في الفكر والتوازن تقوده -قطعًا ويقينًا- أهواء وشهوات ومصالح ومطامح.. تستقطب إليها باسم الدين فئات من المغرر

بهم عندما تضخم في أنفسهم "اعتقادات" ساذجة هي أقرب إلى الأوهام والأحلام منها إلى حقائق ويقينيات الدين. وسواء وصل هذا الاختلال في الفكر والسلوك درجة من الغلو والتشدد يستباح فيها ما تقدم، أو كان أقل من ذلك لا يستبيح دماء ولا أموالاً ولا أعراضًا.. لكنه يجعل من الخلاف المباح في الفروع والجزئيات خلافًا في الأصول والكليات، بحيث تنقلب عنده مراتب الأحكام فتصير الفروع أصولاً والأصول فروعًا، فيشتد في الدفاع والتمسك بالجزئي الأدنى ولو أدى إلى إهدار الكلي الأسمى، تصبح وفقًا لهذا "التصور" قضايا الوحدة، والأمن والسلم والاستقرار، والحريات والحقوق، والأخوة العامة، والتضامن والتكافل، والتعايش والإسهام في بناء العمران والإنسان.. إلخ. قضايا فرعية وكأن لا شيء يشهد لها من الدين ولا علاقة للمسلم بها ولا دور له فيها.

نعتقد أن ورش الأشغال الكبير المفتوح أمام علماء ومفكري الأمة، هو بناء الفكر الوسطي المعتدل من خلال التمكين لقيمه ومفاهيمه، وتمكين مسلمي الأمة من آلية وزن الأقوال والأفعال؛ حتى تستقيم أحوالهم على مقتضى الشرع العدل السمح.

إن مفهوم الوسطية أحد أهم هذه المفاهيم المحورية والمركزية في ثقافتنا الإسلامية، لم يحظ -للأسف- بما يكفي من الدرس والعناية والتمثل، كي يستعيد وظيفيته وإجرائيته الأصلية في ترشيد وتقويم حياة المسلمين. هذا فضلاً عن كثير من الفهوم والوسائط التي قصت من أطرافه وحدت من إمكاناته، حينما اختزلته في تعريفات وحدود ودلالات هي أقرب إلى تحديد مواقع جزئية منها إلى منهاج كلي.

المنهاج الأصل الذي توزن به الوحدات والكيانات الصغرى، كما توزن به الوحدات والكيانات الكبرى في سائر المجالات والحقول، من قضايا الفرد الخاصة إلى قضايا الأمة العامة.

ذلك ما يحاول هذا المقال بيانه من خلال محاور عامة ذات علاقة بالمنظور والرؤية أكثر من التفاصيل، انطلاقًا من الأصول المرجعية وبعض التجليات الفكرية والعملية.

نحو نظام وأصول فكرية كلية مؤطرة لتداول المفاهيم

إن التأسيس لأصول فكرية جامعة منضبطة ومنفتحة هي كليات مفاهمية شرعية، أمر لم ينل حظه من البحث والدرس والبناء والتأسيس مثل ما نالته علوم ومفاهيم أخرى. ونقول هذا -لاعتبار آخر- هو ضمور "الفقه الجماعي" في الأمة الذي يطرح مشكلاتها وقضاياها كأمة. والمداخل المعرفية لإثارة قضايا التكليف الجماعي للأمة، ليست بالضرورة "فقهية" فحسب بالمصطلح الفقهي العلمي الفني، بل أيضًا فكرية واجتماعية وتربوية وتاريخية.. أو بالمصطلح الفقهي العام الذي هو مطلق الفهم عن الله تعالى في مختلف آياته، في النص وفي الأنفس وفي الآفاق.

فـ"الأمة" كلفظ ومفهوم لم يرد في القرآن إلا في سياقات تكليفية عملية كما في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾(آل عمران:١١٠)، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤). وفرق كبير بين الخطاب "الشعاراتي" الذي سقطت ضحيته كثير من التنظيمات الحركية، والذي يُروج لخيرية ووسطية الأمة بين الأمم، دون أن يعي أن ذلك تكليف شرعي حضاري متوقف على التحقق بأعمال وأقوال مسبقة ينبغي النظر أولاً في كيفيات إحلالها وتنزيلها على مستوى الفكر والسلوك في عموم أفراد الأمة، وبين خطاب "العلم" و"الفقه" و"التكوين" الذي ينظر في تلك الكيفيات قبل الشعارات. ويكفي في بيان ذلك أن "التنزيل" الذي هو "فقه" و"علم"، محوط بـ"فقهين" و"علمين" سابقين عليه، أحدهما في "النص" والآخر في "الواقع". والذي لا ينفع معه الخطاب والشعار، وإنما البحث والدرس والتكوين، المؤهل فكرًا وسلوكًا لتبوء تلك المقامات.

إن من أكبر مداخل الابتلاء والفتنة في الأمة، أن أعطت طوائف وحركات معينة الأولوية لـ"الشعار"، وحاولت تنزيله مع فراغ كلي في المضمون العلمي والفقهي، بل وحتى السلوكي الأخلاقي. فكل يفهم حسب هواه وطموحه، وفي أحسن تقدير حسب سقف وسياج الحركة أو الطائفة، ثم يُنزَّل بعد ذلك دون اعتبار لمنطلقات ولا مآلات. يقتبس من الشرع شواهد تشهد لما اختاره وبناه خارج الشرع، مدعيًا أنه "يخدم" الدين وهو في الواقع لا يخدم إلا طموحه، وفي أحسن الأحوال يخدم فهمًا قاصرًا في الدين.

فالخيرية في الآية السابقة عملٌ قبل أن تكون شعارًا، تقتضي إيمانًا وأمرًا ونهيًا حسب مقتضى ومنهج الشرع في الأمر والنهي والدعوة عمومًا، بالحكمة والموعظة الحسنة. والوسطية كذلك

تقتضي حضورًا في الناس بالعدل والقسط والهداية والرحمة، كي تكون الأمة شاهدة على الأمم بعد شهادة الرسول ﷺ عليها، تتمثل القدوة والأسوة النبوية لتكون قدوة وأسوة بين الأمم، تهدي إلى الحق والخير بعد أن هديت إليه وحملت أمانته.

ولسنا هنا بصدد التقليل من شأن أي حركة أو طائفة، فكل الجهود الإيجابية البناءة مقدرة ومعتبرة، لكننا في هذا السياق نؤكد على أمر جامع وضابط كلي عام ينتظم كل الجهود، وهو ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦)، وما بوّب به البخاري رحمه الله في كتاب العلم من جامعه الصحيح "باب العلم قبل القول والعمل"، قال: "لقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾(محمد:١٩).

فتأمل حال الأمة اليوم بين ما هي عليه وبين ما ينبغي أن تكون عليه، من منظور الاستخلاف، والتكليف، وحمل الأمانة، وإعمار الأرض، والشهادة على الناس.. كم مدة زمنية، ومساحة مكانية، وجهودًا علمية، تلزم لاستدراك ما فات؟ وكي لا أكون مثبطًا دافعًا إلى العجز والكسل والتشاؤم -وهو ما لا ينبغي أن يكون بأي حال من الأحوال لأنه نقيض المطلوب في أي عمل إصلاحي- أذكر بأن سنن التدافع الحضاري بين الأمم سقوطًا ونهوضًا، لا تقاس فقط بالمقاييس والمؤشرات الظاهرة التي ألمحنا إلى بعضها، أي "الزمن التاريخي" و"التراكم المادي"، وإنما بشيء أعمق وأنفذ وأسرع تأثيرًا هو "الزمن النفسي والثقافي" و"التراكم القيمي والمعرفي"؛ فمتى ما استحكمت هذه العناصر التي تنتمي إلى "عالم الأفكار" أو "أخلاق العمق"، كان التمكين السريع

للنموذج الحضاري في "عالم الأشياء" أو "أخلاق السطح" كذلك.

إن من أسئلة النهوض الحضاري التي ما تزال معلقة وتحتاج إلى فقه جماعي كلي، وفكر مؤطر ومستوعب: كيف تتحقق الأمة بالخيرية وبالوسطية وبالشهادة وبحمل الأمانة وبالاستخلاف وبالتعمير؟ وكيف يمكن تحويل هذه الكلمات المفاهيمية إلى قناعة عامة في جمهور الأمة، بجعلها تكليفًا شرعيًّا جماعيًّا كالتكاليف الفردية على حد سواء؟ تخلق الإرادة والحافز الإيماني والعملي الجماعي كما الفردي على حد سواء؟ تدفع إلى تقويم الفكر واستقامة السلوك الجماعي كما الفردي على حد سواء؟

إن سؤال "الكيف" هنا، يحيل ضرورة على عمل منهجي. والعمل المنهجي -أيًّا كان- لا ينفك ضرورة عن إطار مرجعي موجه يفرضه الموضوع. إن العمل المنهجي المنظم المستند إلى معالم ومحددات منضبطة، والمؤطر بأصول وكليات واضحة، تسعفانه من التحرر -ما أمكن- من أضرب النزعات والتحيزات المختلفة، هو عملة نادرة في ساحتنا الفكرية والثقافية.

نعم، نادرة هي الدراسات والبحوث المنهجية المعرفية التي تروم بناء المفهوم في كليته واستيعابه فكرًا، انطلاقًا من كلياته وأصوله النظرية. وفي وظيفيته وإجرائيته عملاً، تفعيلاً لبعده التنزيلي الواقعي. وهذا ما نحيل عليه دائمًا من ضرورة استناد أي بحث في ثقافتنا الإسلامية إلى مصادر المعرفة -نصًّا وعقلاً وواقعًا- في تكاملها وانسجامها لا في تقابلها واختلافها. فلكل مصدر دور في تقويم الفكر واستقامة السلوك، وفي درء كثير من الآفات التي يمكن أن

تطرأ عليهما كما هو الواقع الفكري والسلوكي المتجلي في مظاهر الغلو والتشدد، والتحيز والتعصب.. السائدة في الأمة اليوم للأسف.

فالوحي يرشد ويسدد ويهدي للتي هي أقوم في الأقوال والأفعال والعلوم والمعارف، يفتح من خلال أصوله الكلية العامة آفاقًا للتعارف والتدافع السلمي. والعقل آلة الاجتهاد والتجديد والإبداع والتشييد، يدرأ تفعيله صور الجمود والتقليد. والواقع مجال الاستخلاف والتكليف والحركة والتعمير والسنن والوقائع، حيث يتكيف تنزيل الأقوال والأفعال وتُدرأ آفة الصورية والتجريد.

وما دام الاجتهاد بالعقل والحركة في الواقع جهدًا بشريًّا نسبيًّا، يبقى الوحي المعطى الإلهي المطلق مرجعًا مصدقًا ومهيمنًا. فهو -من جهة- يعلي من شأنهما أيما إعلاء إعمالاً للعقل واعتبارًا للواقع، وهو -من جهة أخرى- يدفع عنهما آفات التحيز والتمركز والنزوع إلى التضييق، التي يمكن أن تلحق بهما كذلك.

ولقد مر الفكر الغربي بنزعات عقلانية وواقعية شديدة التحيز والتمركز إلى درجة "التأليه" باسم العقل والواقع أو العلم والطبيعة، لا تختلف في شيء عن صور التشدد والغلو التي تمت باسم الدين. فما تزال البشرية تعاني من آثار ومخلفات النموذجين في صور أكثر بشاعة من حيث هدر كينونة الإنسان والإجهاز على منظومة قيمه المرجعية والمعيارية. فلا بد -إذن- من تدشين بحث جديد في أصولٍ ما تزال محجوبة لاستثارة كوامنها، من شأنها الإجابة عن كثير من الإشكالات والتحديات القائمة بوجه الأمة في فكرنا وواقعنا الراهن.

إن أصل الوسطية هو من الأصول الكلية الجامعة، عليه مدار فلسفة التشريع والتكليف فهمًا وتصورًا وسلوكًا وعملاً، فهو معيار وميزان. ولنقل "محددًا منهاجيًا"، تقاس به نسب الأفعال والأفكار، كي تبقى دائمًا على حال من الاستقامة والاعتدال، والتوازن والقصد والسواء. لكن -للأسف- نجد أن الاختزال والتبسيط التاريخي قد طال هذا المفهوم منذ وقت مبكر كما طال غيره من المفاهيم الكلية المتقدمة في القرآن الكريم وفي بيان السنة والسيرة العملية. فلم يكن غريبًا إذن، أن يطل الانحراف والغلو برأسه منذ عهد الصحابة وأن ينمو ويترعرع بعد ذلك، بل وأن يحتضن ويتأسس في مذاهب وتيارات فكرية وفقهية وسياسية. كما نجد أن التناول المعاصر لهذا المفهوم لم يستثمر كل أبعاده الشرعية التربوية والنفسية والاجتماعية والفكرية، بل حافظ على التبسيط التاريخي ذاته. وأخطر منه، أن المفهوم ركبته تأويلات أخرى جعلته توفيقًا وتلفيقًا بين التيارات الفكرية والحضارية المتصارعة.. وخاصة طوائف من المفكرين العرب والمسلمين، ممن لا يريدون الالتحاق الكلي بالغرب ولا الانغلاق الكلي في التراث.

فلدفع تهمة الاستلاب، يشتغلون ببعض التراث، ولدفع تهمة الانغلاق، ينفتحون على علوم ومناهج الآخر.. ويعتبرون هذا من التوسط والاعتدال، بل هو -في اعتقادهم- جوهر "الوسطية" المطلوبة في الدين.

نلحظ شيئًا من هذا في أعمال ما سمي بـ"رواد النهضة" الأوائل في منهج المقاربات التي قارنوا بها بين المقومات الحضارية للأمة

ومقومات الحضارة الغربية: بين الشورى والديموقراطية، والبرلمان وأهل الحل والعقد، والحسبة والمجالس النيابية.. إلخ. وطبعت كذلك أعمال بعض الكتاب المعاصرين في الحقل الإسلامي، في منهج المقارنات الذي يبحث عن الفوارق بين الحضارتين ليثبت أسبقية الإسلام إلى كثير من النظم والقوانين والحقائق العلمية التي انتهت إليها الحضارة الغربية.

وليس الغرض هنا التنكر لهذه الجهود، فهي مفيدة ومساعدة من غير شك، لكن لا بد من استئناف النظر وتجاوز مواطن القصور والخلل.. لا بد من تدشين نموذج بنائي جديد للمعرفة في الفكر والفقه، يستمد أساسًا من الوحي المعصوم، ويستجيب لخصائص الوحي في كليته وكونيته وفي إنسانيته وقيم الهداية والإرشاد فيه. وينفتح من خلال ذلك كله على مختلف التجارب، الذاتية والغيرية والقديمة والحديثة.. فأصوله الكلية المستوعبة، تمكنه من الامتداد في الزمان والمكان وتأطير حركة الإنسان حيث كان.

إن أصل الوسطية في القرآن الكريم، له شبكة علائقية مع سائر المفاهيم الكلية الأخرى التي تروم تأسيس التوسط والاعتدال في كل كيان الإنسان، فكرًا وتصورًا وسلوكًا وعملاً؛ في نفسه سواء تعلق الأمر بأعماله العادية أو التعبدية، وفي المجتمع من حوله بكل تجلياته وتشكلاته الإثنية والملية، بل وفي رؤيته لمعنى الكون والإنسان والحياة، ووظيفته الرسالية القائمة على جوهر الهداية والرحمة للذات وللناس. إذ الأصل في رسالة عالمية، أن تكون قيمها إنسانية ذات قدرات استيعابية واستقطابية لا إبعادية وإقصائية..

وبالمصطلح الشرعي، تبشيرية لا تنفيرية، وتيسيرية لا تعسيرية.

وإن من سنن الله تعالى في خلقه التي فطر عليها مخلوقاته، الأداء والإنجاز الجماعي للكائنات، حية أو جامدة، عاقلة أو غير عاقلة.. يتضح ذلك من أبسط تأمل في آيات الأنفس والآفاق. وهذا الأداء والإنجاز الجماعي، هو ما يمكن تسميته بـ"العمل المنظومي" الذي تتداخل وتتكامل فيه الوظائف العامة والخاصة.

وهذا الأمر كما يحدث في البنى والأنساق المادية والاجتماعية، يحدث كذلك في البنى والأنساق الفكرية والثقافية، والعلمية والمعرفية.. وهو الذي نسعى إلى بيان جزء منه في مجال المفاهيم القرآنية عمومًا، ومفهوم الوسطية خصوصًا.

بناء على ما تقدم، فإن المفاهيم في القرآن عمومًا، تبقى منظومة تشتغل وفق منطق ونظام خاص هو من سنن الله الدينية الشرعية المعادلة أو المكافئة لسننه تعالى الكونية القدرية. بمعنى أكثر وضوحًا، إن آيات الله تعالى في كتابه المسطور، معادلة من حيث نظامها واتساقها لآيات الله في كتابه المنظور، كما قال الله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾(الواقعة:٧٥-٧٩). فنجد لكل مفهوم وقيمة في القرآن الكريم، حركة أو وظيفة ذاتية لا يقوم بها إلا هو، وحركة أو وظيفة تفاعلية يقوم بها مع غيره في سياق تكاملي للوظائف. والحركتان معًا -الذاتية والتفاعلية- تتمان في الوقت نفسه بشكل نسقي متواز. وهو عمل أشبه ما يكون بأعضاء جسد الإنسان، أو قطع غيار محرك ما. فكل عضو في الجسد يقوم

بوظيفة خاصة لا يمكن أن يقوم بها غيره. وتأمل هنا عمل القلب أو الكبد أو الرئة أو غيرها.. ثم وهو يقوم بهذه الوظيفة، لا يستطيع أن يقوم بها مفردًا مستقلاً، فلا بد له من شبكة علاقات تفاعلية مع الأعضاء الأخرى إمدادًا واستمدادًا. وتأمل قطع محرك، أيًّا كان حجمًا ومجالاً، فلا قطعة تنوب عن غيرها، ولا هي بقادرة على الاشتغال دون دعم وسند غيرها لها، بل تلَف قطعة واحدة ضمن عشرات أو مئات القطع يعطل عمل المحرك أو يضعفه إضعافًا، بحسب دورها المحوري الأساسي أو الثانوي التكميلي.

إن اشتغال المفاهيم عمومًا في القرآن الكريم، هو أدق وأشمل من الصور التقريبية التي أشرنا إليها، حتى قيل إنه كلمة، وبنية، ونسق، ونظام.. إلخ. فأصل التوحيد أو الإيمان -مثلاً- أصل مهيمن. ولنقل بتعبير بعض الكتّاب "قيمة عليا حاكمة". المفروض أن يكون له حضور في سائر المفاهيم الأخرى يزودها بالمعنى، ويحدد وجهتها وقبلتها، ويسدد كثيرًا من آليات اشتغالها.. لكن للأسف ضمر هذا الأصل وانحصرت معانيه ودلالاته في التداول التاريخي، حتى لم يبق لها حضور في مجالات العلم والمعرفة والمجتمع، فلحقها من الآفات ما لحقها. ومثل ما أصاب مفهوم التوحيد من اختلالات، أصاب مفاهيم أخرى كثيرة لها دور محوري ومركزي في بناء الثقافة والمعرفة الإسلامية؛ مفاهيم من مثل الاستخلاف، والتكريم، والتسخير، والوسطية، والشهادة، والعدل، والتزكية، والحرية، والإخلاص، والإحسان، والإنسان، والعمران.. وغيرها، منظور إليها وفق المنهج ومنطق الاشتغال الذي ألمحنا إليه، أي من حيث

استقلالها بمعنى، وتكاملها من خلاله مع سائر المعاني الأخرى. هذا فضلاً عن دلالاتها المعرفية البنائية التأسيسية، والتفسيرية التعريفية الكلية لقضايا الوجود والإنسان والغيب والشهادة.

ولهذا كان النظر الجزئي المفرد لبعض المفاهيم بمعزل عن شبكة علاقاتها وسياقاتها، من أخطر الآفات التي أصابت كثيرًا من الدراسات وهي تحاول عرض أو بيان "المنظور الإسلامي" لقضية ما، كقضية الأسرة أو المرأة أو الحرية أو المساواة.. وكثيرًا من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية.. حيث يتم التعريف من خلال معنى أو اثنين، دون النظر إلى مجموع المعاني والدلالات، أو من خلال اصطلاح مدرسي معين دون سائر الاصطلاحات، مما يحد ويضعف قدرة المفهوم الأصلية الكلية الاستيعابية، باعتباره مطلقًا من مطلق وظيفته الأساس: التأطير الممتد عبر الزمان والمكان لفكر وحركة الإنسان.

وهذا المنهج هو الذي عابه القرآن الكريم نفسه على ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩١)، أي أجزاء وقطعًا، أو أعضاء وفرقًا. وإن كان السياق واردًا في الذين يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، فإنه -منهجيًّا- عام على كل عمل انتقائي يخل بشرط الوحدة البنائية والنسقية التكاملية بين سائر مكوناته.

إن الوسطية هي بحق إحدى كليات الدين الموجهة لمساره، المحققة لتواجده بالشكل المنسجم مع حقائق الإنسان والعمران. والعدل والخيار معنيان يؤديان مفهومًا متكاملاً للوسطية، كانا موجهين فعلاً للحركة العامة للصدر الأول الذي هو ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ﴾، و﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، حيث كان مفهوم الوسطية يحكم ويقوّم الفكر والسلوك والتصور والعمل، به توزن وتعار الأقوال والأفعال، وحيث كانت البساطة في الفهم والقوة في الالتزام، مما جعل هذا الدين ينتشر ويحقق إنجازه الحضاري العظيم قبل أن تأتي عليه انحرافات هي في أصلها خروج عن حد التوسط والاعتدال، وجنوح إلى إفراط أو تفريط، وبالتالي تنكب عن مواطن الخيرية والشهادة وغيرها من أوصاف الأمة الوسط.

كما قال الشيخ الغزالي ﷺ: "منذ بدأت الثقافة الإسلامية والإيمان أركان ونوافل، وأصول وفروع، وأعمال قلبية وأعمال جسمية.. وإن الذي يحدث عند بعض الناس، أن جزءًا من الإسلام يمتد على حساب بقية الأجزاء كما تمتد الأورام الخبيثة على حساب بقية الخلايا فيهلك الجسم كله (...) وهذا "التورم" الذي يصيب جانبًا دينيًّا معينًا، هو السر وراء فقهاء لهم فكر ثاقب وليست لهم قلوب العابدين، ومتصوفين لهم مشاعر ملتاعة وليست لهم عقول الفقهاء.

وهذا هو السر وراء محدثين يحفظون النصوص ولا يضعونها مواضعها، ولا يجيدون الاستنباط منها.. وأصحاب رأي يلمحون المصلحة ولا يحسنون مساندتها بالنص المحفوظ.. هو السر وراء حكام يعملون، رعاة للجماهير وباعهم في تقوى الله قصير، وعامة يعكفون على العبادات الفردية فإذا بلغ الأمر النصح والزجر والأمر والنهي والتعرض لغضب الحكام، لاذوا بالصمت الطويل"[1].

[1] الدعوة الإسلامية، للغزالي.

"إن الوسطية تعني أن الإنسان في الإسلام لا يعيش تناقضًا داخليًا بين روحه وجسده، بين القيم الدينية ومتطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فعدم وجود قطيعة بين الدين والدنيا بين الدنيا والآخرة، ينتج عنه من الناحية الفلسفية، أن النمط الفكري المستخرج من الإسلام ينفر من الثنائية، ولا يمكن أن يدرج في إطار المثالية أو المادية (...) فالمفاهيم والقيم الإسلامية لا توجد مبعثرة وعفوية دون نظرية ضمنية -تتسق ضمنها- فالوسطية هي الأرضية الفكرية والمنهجية للمفاهيم الإسلامية، وهي محور المنظومة الإسلامية العامة التي لا تفصل بين الدين والدنيا"[١].

"الوسطية الإسلامية تمثل السمة والقسمة التي تعد بحق أخص ما يتميز به المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات.. بها انطبعت الحضارة الإسلامية في كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات حتى لنستطيع أن نقول إن هذه الوسطية بالنسبة للمنهج الإسلامي -وحضارته- هي عدسته اللامّة لأشعة ضوئه وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضًا، وهي بنفيها الغلو الظالم والتطرف الباطل إنما تمثل الفطرة الإنسانية قبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات"[٢].

وإذا ما تجاوزنا التجربة التاريخية في هذا السياق إلى الفكر المعاصر، فإننا نجد الوعي بهذه المسألة أخذ في التبلور بشكل تدريجي لاستدراك الخلل التاريخي برد الاعتبار لهذه الخصيصة

---

[١] محمد عبد اللاوي: (تعقيب): محمد عمارة: في المنهج الإسلامي، ص:٢٠٤.

[٢] في المنهج الإسلامي، لمحمد عمارة، ص:٥١.

التي أصبحت دعاتها يمثلون "اتجاهًا" متناميًا بين اتجاهات عدة تطغى عليها آفات الجمود والتقليد للموروث أو للوافد، وآفات الفهم السلبي للنصوص. لكنه يبقى دون المنظور النسقي الكلي والوظيفي الإجرائي للمفهوم كما تعرضه الأصول الشرعية، دون التراكم والامتداد والإقناع والاستيعاب الذي يحوله إلى قناعة توجه فكر وسلوك الجمهور والعامة. ودليل ذلك شيوع الفكر المتشدد ومظاهر الغلو والتطرف، التي تبتدئ من الخلاف في الرأي وتنتهي إلى الاقتتال المسلح المنظم. لا نغفل طبعًا أن لهذا الامتداد أسبابًا أخرى تتجلى في ممارسات سياسية مستبدة وظالمة، وفي فوارق طبقية وظروف اجتماعية قاسية تغذيه وتزوده بالوقود. لكن يبقى للتأطير الفكري والتربوي، وإشاعة قيم الاختلاف والتسامح، دور حاسم في درء الشبهات والتضييق عليها، وقطع قنوات الإمداد والاستدراج لضحايا الجهل والغفلة والسذاجة.

الوسطية منهاج وميزان

من شمولية واستيعابية مفهوم الوسطية في القرآن الكريم، أننا نجدها تؤطر مناحي حياة الإنسان المختلفة من التصورات الكونية والإنسانية، أو الوجودية الكبرى، إلى التكليفات الجزئية الفرعية. هذا علمًا بأن التشريع أصلاً قائم على التيسير ورفع الحرج والمشقة، كما في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥)، و﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(الحج:٧٨)، و﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾(البقرة:٢٨٦)، وآيات أخرى كثيرة في هذا المعنى.

وفي الحديث الشريف: "إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا ولكن بعثني معلمًا ميسرًا" (رواه مسلم)، وعنه أيضًا ﷺ: "إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة" (رواه البخاري)، وإنه ﷺ ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما. كما توعد المتنطعين بالهلاك في قوله ﷺ: "هلك المتنطعون (ثلاثًا)" (رواه مسلم)، وهم ليسوا إلا الغلاة المتشددون المتعمقون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم، والذين لا يهنأ لهم بال حتى يلزموا الناس بأفهامهم الجزئية الضيقة التي هي من مباحات الدين على حساب أصوله وكلياته الرحبة الفسيحة التي تسع الناس كلهم وليس طوائف منهم فحسب.

فالقرآن يحوط الإنسان بحقيقتين أساسيتين لإدراك فلسفة ذاته في الوجود.. حقيقتان تقيمان فيه حالة التوازن والاعتدال، فلا يطغى ويتكبر ويفسد في الأرض من جهة، ولا يذل وينكسر ويهان من جهة أخرى. فهو خليفة في الأرض، مكرّم مفضّل فيها، سُخرت له المخلوقات، حامل لأمانة عظمى، سجدت له الملائكة تكريمًا، مخلوق في أحسن تقويم كما تبين ذلك الآيات الكريمات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤).

ثم إن الإنسان كذلك -وهذا ما لا ينبغي أن يغيب عنه- كائن

تافه الأصل والخلقة؛ أصله الأول من تراب وسلالته من ماء مهين، والشأن فيه -إن طالت به الحياة- أن يعود إلى أرذل العمر فلا يعلم بعد علم شيئًا. فهذا وازع يردع الطغيان في الإنسان ويكبح جماح عناصر الشر فيه. ولنقرأ في ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾(الحج:٥). وانظر إلى النموذج الفرعوني -وكل نموذج فرعوني مماثل- كيف انتهى إلى أصله الضعيف بعد اغترارٍ بسلطة وملكٍ غير راشد ولا سوي أو معتدل، إذ لم يتمثل الأصل الثاني المبرر لوجوده والمعدل لمنظوره عن نفسه وغيره إلا بعد فوات الأوان: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(يونس:٩٠-٩٢).

وانظر إلى نموذج سحرته في المقابل، الذين عاشوا ظلم الاستخفاف والذل والعبودية الزائفة، إذ لما تحرروا بالإيمان انتهوا إلى عزة وكرامة النفس، فقالوا من غير تردد إجابة على توعد فرعون: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا

وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طه:٧٢-٧٣).

فالغلو في الإعجاب بالذات أو الرأي إلى درجة التقديس أو التأليه، ليس من الرشد والاتزان في شيء، كما أن الغلو في امتهانها وجعلها قابلة للاستخفاف بحيث لا تستشعر أي مسؤولية ذاتية، ليس أيضًا من الرشد والاتزان في شيء، وإدراك الإنسان لهذا البعد في ذاته وتحققه به، لا شك أنه يفتح أمامه أبوابًا أخرى، وييسر له التعامل والتفاعل الإيجابي مع الغير، وإدراك أشكال أخرى من التوازن والاعتدال.

القرآن يعرض -كذلك- الحياة الدنيا تارة في معرض المدح والتزيين، ويعرضها تارة أخرى في معرض الذم والتقبيح. العرض الأول؛ للمعرض المنقطع والراغب عنها، والعرض الثاني؛ للمقبل المنهمك والراغب فيها، بما يؤسس فلسفة لمعنى الحياة، تجعل الإنسان قادرًا على التمييز بين ما خلق هو لأجله، وما خلق مسخرًا بين يديه. وعلى إدراك العلاقة الجدلية التكاملية بين الإثنين، فلا ينشغل بالثاني عن الأول، لأنه إلغاء أصلاً لفلسفة الحياة ومبرر الوجود وسر الخلق والتكليف، ولا ينقطع مكتفيًا بالأول عن الثاني، لأنه جزء لا يتجزأ من تلك الفلسفة الوجودية ومن ذلك السر في الخلق، بل لا يتحقق إلا به، إذ هو مجال الابتلاء والتمحيص، فلا مادية كلية في الإسلام ولا رهبانية كلية في الإسلام، لكن نسق بنائي جديد قائم الذات والتصور لهما معًا، وليس قطعًا توليفًا أو توفيقًا بينهما.

وهذا ما تؤسسه آيات من مثل قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ

وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص:٧٧)، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٧)، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة:٢٠٠-٢٠١).

ثم نجد إلى جانب ذلك آيات أخرى تحدّث الإنسان عن تفاهة الدنيا وتحذره من الاغترار والانخداع بها كما في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)، وآيات أخرى كثيرة لها نفس المعنى والدلالة.

نجد هذا التوازن والاعتدال والوسطية في كل الآيات التكليفية، ونعتبر أن كل آيات القرآن تكليف وأحكام، بالإيمان والاعتقاد، أو بالنظر والاعتبار، أو بالعلم والعمل والضرب في الأرض، أو بالدعوة والتبليغ، أو غير ذلك.

من شمولية واستيعابية مفهوم الوسطية في القرآن الكريم، أننا نجدها تؤطر مناحي حياة الإنسان المختلفة من التصورات الكونية والإنسانية، أو الوجودية الكبرى، إلى التكليفات الجزئية الفرعية.

• ففي الاستقامة والتزام الحدود نقرأ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ

تَـابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَـوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(هود:١١٢)، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون﴾(البقرة:٢٢٩).

• وفـي الإنفـاق نقـرأ: ﴿وَلاَ تَجْعَـلْ يَـدَكَ مَغْلُولَـةً إِلَـى عُنُقِـكَ وَلاَ تَبْسُـطْهَا كُلَّ الْبَسْـطِ فَتَقْعُـدَ مَلُومًـا مَحْسُورًا﴾(الإسـراء:٢٩)، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧).

• وفـي معاملـة الناس نقرأ: ﴿وَلاَ تُصَعِّـرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًـا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِـبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ * وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُـضْ مِـنْ صَوْتِـكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْـوَاتِ لَصَـوْتُ الْحَمِيرِ﴾(لقمان:١٨)، وهكـذا معظـم آي الكتـاب المجيد. وتبقى السـنة والسـيرة النبوية كلها نماذج تطبيقية، ووحدة قياسية نموذجية ومعيارية لكل المعاني السالفة، ولذلـك قالـت أمنـا عائشـة ﵂ عـن النبـي ﷺ: "كان خلُقـه القـرآن" (رواه مسلم)، أو "كان قرآنًا يمشي بين الناس"، حيث ينبغي أن تُقرَأ مـع مسيس الحاجة إلى تَمثُّل بيانها وإرشادها لما يُصلِح أحوالَ الأمة والناس.

الوسطية منهج بنائي لا توفيقي

هـذه إذن أهـم معالـم "اتجـاه" الوسـطية فـي الفكـر الإسـلامي، وقـد حرصنـا علـى وضـع كلمة "اتجاه" بين قوسـين، لأننا نسـتعملها تجاوزًا، ذلك أن الوسطية قبل أن تكون "اتجاهًا"، هي صلب المنهج الإسـلامي ذاتـه فـي أحكامـه وشـرائعه ومعتقداتـه كما تقـدم. وحدّه، الفهـم الوسـطي المعتـدل الجامـع بين مصـادر المعرفة فـي تكاملها، وبيـن عالـم الغيب والشـهادة، وبين العلم والعمل، قـادر على تحقيق المعـادلات الصعبـة الفكريـة أولًا قبـل السياسـية، والتـي تتجلـى فـي

التقابل والتقاطب المفهومي بين تيارات الأمة المختلفة -قديمًا وحديثًا- تحت مسميات: الرأي والأثر، والحكمة والشريعة، والعقل والنقل، والعلم والدين، والأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث، والتراث والتجديد، والإسلام والغرب، والدين والدولة، والأنا والآخر ..إلخ.

فهذا الواقع الفكري المأزوم، يحتاج إلى مركز ثقل جامع تلتقي عنده جل الأطراف المؤمنة به. وذلك هو المنهاج الوسطي البنائي للفكر والمعرفة، المستوعب من خلال أصوله الجامعة للثنائيات المتقدمة تكاملاً لا تقابلاً، والذي بإمكانه معالجة جذور الغلو والتطرف الديني واللاديني على حد سواء، يعمم في مقررات التعليم والإعلام حتى تنشأ عليه أجيال في الأمة لا ترى تناقضًا بين دينها ودنياها.

آليات بناء ثقافة الوسطية[1]

د. مريم آيت أحمد[*]

كيف يمكننا بناء ثقافة الوسطية في ظل غياب نقطة لقاء وتقابل ووفاق بين ثقافة الأبيض والأسود، الاستتباع المطلق والرفض المطلق، الحوار والإقصاء "الشحّ" و"الإسراف" البناء والهدم، الهوية واللاهوية، العنف والتسامح، الظلم والعدل... ثقافة الغالب أو المغلوب، ثقافة الوسط المعاصرة والعولمة ، ثقافة المادة و الروح، وغيرها من الثقافات التي كان لها حضورها وقوة دفعها وتأثيرها على المجتمع البشري سلبًا وإيجابًا، مما يميزها بصفة الحياة والديمومة بين ثقافات كثيرة ماتت واندثرت عبر الزمن.

وبعيدًا عن برمجة وعينا الذاتي وتموقعنا داخل دائرة الإطار الدفاعي الضيق، الذي يحكمه رد الفعل الآني اللامفكَّر فيه، والذي بسببه تم استهداف موقع الوسطية في عالمنا العربي والإسلامي، علينا أن نعيد بناء موقع الوسطية بناء تاريخيًّا ملموسًا متينًا. واليوم ليس صدفة ولا اعتباطًا أن يغلب الفكر الدفاعي بآلياته الانكماشية

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٣٥ من مجلة حراء.

[*] كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

والتبريرية الأيديولوجية داخل المجتمعات الإسلامية، وأن يضمر إنتاج المعرفة الحقيقية التي يمكن أن تفتح أبوابًا جديدة للعمل، وأن تحدث منعطفًا حقيقيًّا في واقع المسلمين وفي حاضر البشرية.

نعم، إن تدمير الموقع الروحي الذي يمكن أن يشرف منه المسلم على العالم وعلى الناس، ويتمكن من خلاله كسب مفاتيح تسريع التغيير وبناء الحضارة والوصول إلى أفئدة الأمم الأخرى، يبدأ بتغييب سؤال الهوية: من نحن؟ ويمكننا أن نجيب على هذا السؤال بكيفيتين: من جهة المعنى الإرادي للهوية، ومن هذه الزاوية لسنا ما نحن عليه، ولكننا ما نريد أن نكون عليه وأن نصير إليه، فالهوية هنا إمكانية وأفق للتطلع أمامنا. ويمكننا أن ننظر للهوية نظرة سوسيولوجية، أي من جهة ما نحته الزمن والآخرون فينا، فنحن لسنا مجرد فاعل تاريخي حر، ولكننا أيضًا مفعول به. ومن هذه الزاوية يمكن أن نطرح السؤال السوسيولوجي: ما هي القوى التي تخترقنا وتحددنا على ما نحن عليه؟ وحين نطرح هذا السؤال بجدية، سنكتشف أننا لسنا سادة أنفسنا في كثير مما نفعل، وأن ما تعرَّضت وتتعرض له الأمة وطلائعها من هجمات ضارية، قد أحدث تشويهات هامة في وعينا الذاتي، وحسنا التاريخي. ومن المعروف سوسيولوجيًّا أن العنف الشديد الطويل، له آثار تشويهية في الغالب، ولا يمكن أن نفلت من هذه الآثار إلا بالاعتصام المعرفي والعملي بالمقام الروحي للوسطية. فالوسطية هنا قيمة تحررية وملاذ من التشويهات العنيفة للهوية وللوعي الذاتي.

بهذا المعنى فإن الوسطية، هي الموقع الذي يمكن لمسلم هذا

الزمان أن ينطلق منه وينشئ فعلاً تاريخيًا متحررًا من التشويهات العنفية. الوسطية كموقع روحي، كقيمة تأسيسية لكينونة الإنسان، كمبدإ تأسيسي للأمة الإسلامية، هي الأفق الذي ينبغي أن تتحرك نحوه الأمة، لأن الأمة الآن لا ترى كثيرًا مما ينبغي أن تراه.

ولأن ثقافة وسطية الأمة -أيّة أمة- هي المظهر الأبرز الدال على قوة مبادئ ومعتقدات وحضارات الشعوب في بناء الحضارات، وهي عنصر هام في عملية التنمية الشاملة والبناء الحضاري، فبمقدار شمولية ثقافة الوسطية وتوازنها واستقرارها وصحة متبنياتها، يرتفع عمود الحضارة وتترسخ أركانها في المجتمع، وليس لقوة -مهما بلغت- أن تهزم أو تهدم حضارة قائمة على ثقافةِ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣). لأن الوسطية هي جهاز فعّال ينتقل بالإنسان إلى وضع أفضل، ووضع يواكب المشاكل والظروف الخاصة التي تواجه الإنسان في هذا المجتمع أو ذاك في بيئته وفي سياق تلبيته لحاجاته الأساسية. وعودتنا إلى بناء ثقافة الوسطية، والانطلاق منها إلى المشاركة والمنافسة الحضارية الفاعلة، يقتضي منا إعادة النظر في صياغة جديدة للأمور الآتية:

١- بناء ثقافة وسطية الفكر الإسلامي

لابد لنا أن نؤكد على أصول العقيدة الثابتة القطعية في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وفصلها من فروعها، والتأكيد على الأصول وترك الفروع التي اختلف حولها العلماء، حتى لا نتمزق من جديد.

فثقافة الوسطية ينبغي أن تؤصِّل:

• لمنهج في التعامل مع تيارات الفكر الإسلامي القديم، واعتبارها تيارات اجتهادية جابهت الفلسفات والتيارات الفكرية في زمانها فأصابت وأخطأت، وليس من المصلحة إحياؤها اليوم وإدارة صراعات جديدة عليها.

• لتقبُّل مواجهة الأفكار الجديدة بأسلوب جديد ومادة معرفية جديدة، منطلقين من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

• تبني المنهج الشمولي في فهم الإسلام الذي يجمع بين العقيدة والشريعة والسلوك والحركة والبناء الحضاري من خلال منهج عقلي أصولي سليم.

• الإيمان بأن الفقه الإسلامي فقه متجدد، لا يقف عند زمن معين ولا مذهب معين، ومواجهة مشكلات العصر من خلال مقاصد الشريعة وقاعدة الأيسر وليس الأحوط.

• دراسة الأنظمة العامة والمبادئ الكلية في الشريعة الإسلامية، بمواجهة ما عند الغرب من مبادئ ونظريات قانونية كلية.

• دراسة السنن الكونية دراسة علمية موضوعية، والاستفادة منها في الدخول إلى العصر الحضاري الإسلامي الجديد.

• استقراء وتفكيك وتحليل مختبري للعوامل المؤدية لمظاهر الخرافة والبدع والتواكلية والانهزامية واللاإرادية الإنجاز والعنف والانحراف، لا لاقتصار على تدويل ثقافة الردع والاستنكار والمحاربة.

• تأسيس مراكز دراسات وأبحاث إستراتيجية، وتأهيل أطر وكوادر علميًّا ومعرفيًّا وإعلاميًّا وسياسيًّا وسوسيولوجيًّا وتكنولوجيًّا،

للرد على الغزو الثقافي العولمي من خلال المنهج السابق في الفكر الإسلامي بجميع الوسائل التي يعتمد عليها، سواء من خلال الأنماط الفكرية، أم الفنية، أم الأدبية التي يعرضونها من خلال أفكارهم المناقضة للإسلام.

٢- بناء وسطية الفكر السياسي

لابد من تأصيل منهج وسطي كفيل بنقد تاريخي شامل لنظام الحكم في المجتمعات الإسلامية من بعد معركة صفين وإلى اليوم، وإثبات أن بعض التطبيقات الاستبدادية التي سادت في بعض تاريخنا مخالف لنظام الحكم الشورِي في الإسلام، وأنه جلب على الأمة الإسلامية -عبر العصور- مآسي جمّة وخرابًا شاملاً، وأنه من أعظم أسباب سقوط المجتمع الإسلامي وأزماته قديمًا وحديثًا.

إن نظام الشورى في الإسلام كما طبّقه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وكما يمكن أن يلجأ اليوم إلى الآليات والأساليب المعاصرة المنسجمة مع روح الإسلام لتحقيق مقاصد الشورى، هو الذي يحقق كرامة الإنسان المسلم، ويعيد إليه حقه في المعارضة والتعبير عن آرائه بحرية أخلاقية منضبطة. وما لم تساهم الحكومات العربية اليوم، مع النخب السياسية والفكرية، في إعادة بناء وسطية الفكر السياسي والإيمان بالديموقراطية والتعددية والحرية الفكرية والسياسية، فإن النتيجة ستؤدي إلى المزيد من العنف الداخلي والخارجي.

٣- بناء ثقافة الوسطية في الفكر الاقتصادي

استنباط المنهج الوسطي في الفكر الاقتصادي والنظام الاقتصادي

الإسلامي المعاصر من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واجتهادات الفقهاء المجتهدين عبر العصور، مع التعمق في استنباط فقه الواقع مع ما استجد من قضايا الاقتصاديات المعاصرة، والتي تتلاءم مع روح الإسلام. ولعل المنهج الوسطي في بناء الاقتصاد، كفيل بالقضاء على التفاوت في توزيع الثروات، ويعيد التوازن إلى المجتمع الإسلامي، ويحدد وظيفة الدولة الاقتصادية، وذلك من خلال:

• وضع مناهج دراسية في وسطية الاقتصاد الإسلامي، وبيان مرونته في منع الاستغلال وعدم التركيز على معالجة واحدة في كل حالة زمانية أو مكانية، وأنه يقرر الأصول ويفتح حرية الحركة أمام الاقتصاديين لحل المشكلات الاقتصادية حسب الظروف المختلفة.

• قراءة قيمية للمنهج الوسطي الاقتصادي في مشروعية التملك، مع إحاطته بسياج من القيود حتى لا يؤدي إلى التعسف في استعمال حق الملكية، ويشرع الإسلام مع الملكية الفردية الملكية العامة وملكية الدولة.

• توسيع مجال الدراسات في وسطية الاقتصاد الاسلامي، في احترام قيمة العمل المستخلصة من مفهوم الاستخلاف، وتكافؤ الفرص وتغليب التوازن في التكافل الاجتماعي، لتحقيق التنمية الشاملة من منطلق القاعدة الشرعية "حيثما كانت مصالح العباد فثمة شرع الله".

هذه هي بعض الملامح العامة لبناء ثقافة وسطية للاقتصاد الإسلامي، المتميز عن باقي الأنظمة الاقتصادية بإعطاء الأولوية لمحورية الإنسان في الكون وليس المادة والربح والقوة والتمكين،

لابد أن يؤدي عند تطبيقه، إلى طريق جديد للتنمية في المجتمع الإنساني، طريقٍ وسطٍ ليس آليًا يبغي الربح وحده أو الكفاية الاقتصادية وحدها، إنما هو طريق إنتاج اقتصادي أخلاقي إنساني، يفي بحاجة الإنسان وضروراته وشيء من كمالياته، إن أمكن ذلك.

فإذا أعطينا الأولوية لإعادة قراءةٍ وصياغة منهج وسطي في الاقتصاد الإسلامي، سنتمكن من الاستفادة من إمكانيات المسلمين الاقتصادية الضخمة المتنوعة في جانب التشييد والاستثمار والمعادن والزراعة، وسنواجه العولمة المركزية بعالمية عربية وإسلامية وشرقية. إن المنهج الوسطي سيؤهل كوادرنا بخبرات التعامل مع الاقتصاد العالمي من خلال تبادل المنافع، والتخطيط للتنمية تخطيطًا ذاتيًا جيدًا، مع الاستفادة من خبرات وتنظيمات الحضارة الغربية واقتحام المنافسة الحضارية بإقامة سوق إسلامية مشتركة، تنقل من خلالها الأرصدة العربية والإسلامية الضخمة إلى العالم، بعد إعادة الثقة في وحدة الأمة.

٤- بناء ثقافة وسطية الفكر الاجتماعي الإسلامي

لابد من تأصيل منهج الوسطية في النظام الاجتماعي الإسلامي، وذلك من خلال الأمور الآتية:

• نشر ثقافة الوسطية في تدويل ونشر قيمة مبدإ تكافؤ الفرص في المجتمع الإسلامي الموزع بين جهود الرجال والنساء يكمل بعضهم بعضًا، بدون مفاضلة في أصول الخلقة، ولا مفاضلة لجنس على آخر في أصل الخلقة، بل كل جانب يفضل الآخر فيما كلف به من واجبات شرعية.

• إقرار المنهج الوسطي الإسلامي في تشريعاته الخاصة بإنسانية المرأة، واستقلال شخصيتها، وعدها أهلاً للتدين والعبادة، وإقرار حق المبايعة لها كالرجل، ودعوتها إلى المشاركة في النشاط الاجتماعي المنضبط بضوابط الأخلاق، وقد سمح لها بالأعمال التي تتفق مع طبيعتها، وشرع لها نصيبها في الميراث وإشراكها في إدارة شؤون الأسرة وتربية الأولاد، وأوجب معاملتها بالمعروف واحترام آدميتها، كما أنه ساوى بينها وبين الرجال في الولاية على المال والعقود، وأقر لها شخصيتها القضائية المستقلة.

ومن هذا المنطلق، لابد من إعادة النظر في مشكلاتها الاجتماعية في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية العامة، ومقاصدها الحكيمة وغاياتها في الحياة، لتحديد مسؤوليتها الأسرية والاجتماعية.

• وسطية الإسلام في تحقيق العدل والسلم وحفظ حقوق أهل الأديان جميعًا، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، إلا فيما يخص القضايا التشريعية الخاصة بكل طرف في إطار المجتمع الإنساني.

• التركيز على وسطية الإسلام في بناء نواة الأسرة في المجتمع الإسلامي على القواعد الإسلامية؛ في الطهارة والعفاف والبر والإيثار والتكافل، والابتعاد عن الأمراض الاجتماعية والفوضى الجنسية والاجتماعية، وخرق نظم ومبادئ الأخلاق التي يقرها الإسلام.

٥- بناء ثقافة الوسطية في الفكر التربوي والإعلامي

أمام هجمة الفضائيات العولمية، وتخطيطها العلمي والفني الذكي في عرض أفكارها بطرق متنوعة مؤثرة عبر الأنماط الفنية

من المسلسلات والأفلام والتعليقات والتقارير التي تدخل يوميًّا مئات الملايين، من أجهزة التلفزيون والإذاعة والإنترنت على وجه الأرض، لا يمكن الحفاظ على الذات والأصالة والخصوصية الدينية والفكرية، إلا بتربية أبناء الأمة تربية مخططة، تُشعِرهم بأنهم أبناء أمة التوحيد والإيمان، وتنشئتهم نشأة إسلامية، وتحصّنهم فكريًّا وأخلاقيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، بحيث يعلمون بيقين كامل أنهم متميزون عما يشاهدون. ويكون ذلك:

• بالاهتمام بتربية الأسرة المسلمة وتثقيف أفرادها، وتوجيههم من خلال أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، ومن خلال المناهج الرصينة في التربية الدينية، وكتب اللغة العربية، وكتب التاريخ والجغرافية والثقافة العربية والوطنية العامة، وإعادة الاعتبار للعلاقة بين الدين والعلم من خلال الكتب والمجلات والجرائد والدوريات الخاصة والعامة، والمخيمات والدورات التدريبية الشبابية في الأقطار العربية أو الإسلامية.

• وبإعادة بناء ثقافة وسطية إعلامية هادفة، تستثمر نصوص العُروض المسرحية والأفلام الدرامية ودُور العَرض السينمائية في إيصال الرسالة الأخلاقية والقيمية، التي تمكن من تأهيل وتكوين أجيال تشعر بانتمائها الإسلامي وانتسابها الحضاري للأمة العربية والإسلامية.

• ومن خلال وحدة المعرفة التي قامت عليها التربية الإسلامية التي تبغي صياغة الفرد صياغة إسلامية حضارية، وإعداد شخصيته إعدادًا كاملاً من حيث العقيدة والذوق والفكر والمادة، حتى تتكون

الأمة الواحدة المتحضرة التي لا تبقى فيها ثغرة تتسلل منها الإغراءات العولمية اللادينية الجنسية الإباحية.

إننا نحتاج في بلاد الإسلام كلها، إلى أن نقوم بحملة إسلامية شاملة عبر مخطط حضاري معاصر، تشترك فيها الدول والمؤسسات الرسمية والشعبية والجمعيات والأحزاب جميعًا، لأن مواجهة العولمة من الخطورة بحيث يجب أن نتعامل معها من مواقع قوية تشهد على وحدة الأمة وغاياتها النبيلة في هذه الحالة لخيرها ولخير البشرية جميعًا.

إن إستراتيجية إعادة بناء ثقافة الوسطية مرتبطة كل الارتباط بمفهومي الهوية والحوار. والسؤال: كيف يمكن أن نبني ثقافة وسطية إن لم تكن بيننا نقاط مشتركة نتحاور فيها؟ لأنه وفي ظل غياب منهج الوسط في تقييم القواسم المشتركة، يكون الحوار أكذوبة وخداعًا مجتمعيًّا، وتأتي الاتفاقات بين التشكيلات والانتماءات المختلفة هشَّة. فمن الضروري تأصيل منهج وسطية القواسم المشتركة. ولا يعني هذا تبشيرًا بنوع من العالمية اليوتوبية؛ فالمسألة ليست على هذه الصورة. القضية الجوهرية هي: كيف يمكننا أن نتبنى نهج الاعتدال والوسط للحوار والتفاهم مع الأطراف المخالفة في الفكر والرأي والدين والسياسة، من غير نقاط متشابهة ومشتركة تؤهلنا للخروج بنتائج عملية للمشاركة الحقيقية على تنوع الوسائل والآليات في صنع الحضارة العالمية

هنا يبرز دور علم التربية الخاص بالوسطية قبل الحوار، لأن الحوار لن يتحقق من دون إيمان بمنهج وسطي يحضر العقل لقبول الحوار.

ولبناء ثقافة الوسطية، ينبغي تحديد ماهية الهوية، هل هي مبنية على أحادية؟ إذا كان المرء وحيدًا في الكون، هل يعقل أن تكون له هوية؟ حتمًا كلاّ، يجب أن يكون ثمة تفاعل مع الآخر لخلق هوية. ولكن هل التفاعل أو الحوار مع الآخر، يكفي لتشكيل هوية؟ الأكيد أنه لا يكفي. لماذا؟ لأنه منذ البدء كان الآخر موجودًا دومًا، والآخر هو "الغريب" بطريقة أو بأخرى. لذا كانت الحروب والتدمير على امتداد التاريخ وفي كل زمن. ما السبب؟ لعل أحد الأجوبة المفاتيح، أنه ينبغي وجود "ثالث مشمول"، هو منهج وسطي بين الإنساني والمقدس الذي يستحيل اختزاله في كل إنسان.

المطلوب إذن، تبني مشروع تربوي خاص بالتربية والتعليم يوفِّق -منذ البدء- بين المناهج العلمية والمناهج الأنَسِية والفن والشعر... أي لخلق أشخاص وسطيين معتدلين مرنين في عالم عدواني، أي عالم يقود سريعًا إلى البطالة، إلى الاستبعاد، إلى الاستهلاك، إلى الاتكالية، الانهزامية الانحراف، العنف، التهميش، الإقصاء... عالم يقول بالتكنولوجيا الحديثة لجيلنا: "أنت غير جدير بالتقدير" يسمعها الجيل ويدرك معناها جيدًا. وهنا المشكلة في لبّها، بناء ثقافة الوسط ينبغي أن تبدأ بالبث أولاً عن إجابة شافية لهذا السؤال المحرج والمحيّر، لماذا يُهمَّش الإنسان في جيل التمكين المعرفي والعلمي والتكنولوجي؟ الإنسان إنسان، وله قدراته وموهبته. لكلٍّ منا موهبته، لكن بشرط تأمين الظروف الملائمة لطاقاته ومواهبه. أما عالمنا الحاضر فلا يسعى إلى خلق تلك الظروف الملائمة، لأنه عالم تكنولوجي. ما نودُّه عبر مشروع منهج الوسطية التربوي، هو أن نثبت عبر الوسائل التربوية أن

الكـون أكثـر ثـراء بكثير مما نعتقد. وهنا يمكن للعلم إذا أعدناه للدين، وفصلنـا القطيعـة التـي أحدثناها معـه -ولعقود- يمكـن أن يلعب دورًا كبيـرًا علـى المسـتوى التربـوي تحديـدًا، وأن يبيّن أن فـي الطبيعة غنى هائـلاً ومسـتويات مختلفـة تتكامـل وتتوحَّـد فـي أصغـر ذرة حتى أكبر مـا فيهـا. أعتقـد أن الطبيعـة تنطـوي على تلـك الصورة التـي هي مهمة لعالمنا، أعني عالمنا المبني على مستويات مختلفة، وثقافات مختلفة، ولغات مختلفة، وتقاليد وعادات مختلفة.

التوازن الفكري[1]

د. محمد بن إبراهيم السعيدي[*]

ما أعنيه بـ"التوازن" هو الابتناء على المعطيات الصحيحة -في نظري- لتكوين الأفكار. والاتزان لا يعني صواب الفكرة، بل صواب طريقة التفكير، فإن من مفارقات الفكر، أن سلوك طريق واحدة فيه لا يؤدي بالضرورة إلى نتيجة واحدة.

وقبل الاستغراق في هذا المعنى، يحسن أن أبدأ في ذكر مفهومين للفكر؛ فإننا حين نستعرض كشافات الاصطلاحات العلمية القديمة، نجد الناس بين عالِم ومتعلِّم وجاهل، وربما وُجد في بعض الأوساط مصطلح المتكلم والفيلسوف. وفي العصر الحديث وُجد مصطلحان ليس لهما وجود -حسب علمي- في تراثنا القديم، وهما الثقافة والفكر، ويأتي منهما المثقف والمفكر، ويحار الناس كثيرًا في تحديد معناهما، ومن ثم يحارون في مواضع إطلاقهما.

وحديثنا عن الفكر خاصة، فالذي يظهر لي، أن أكثر مَن يتعاطى هذا المصطلح في ثقافتنا العربية المعاصرة، يريدون به "التصور

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٤٤ من مجلة حراء.

[*] أستاذ في أصول الفقه، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

الإجمالي والتفصيلي لواقع ما، من حيث كنهه، وعوامل تكوينه، ومآلاته، وطرق تحسينه، وعلاج آفاته"، وتقييد التصور بالإجمالي والتفصيلي ليشمل الإدراك بنوعَيه عند المَناطقة الذين يقسمون الإدراك إلى تصور وهو الإدراك المتجرد عن الحكم، وتصديق وهو الإدراك المتضمن للحكم.

والواقع، يشمل الواقع الديني، والسياسي، والاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي لمجتمع ما، فكلّ تصور لهذا الواقع في أي جزئية من جزئياته يعدّ فكرًا، ولهذا يمكن القول إن الفكر بهذا المفهوم مشاع بين الناس. فكل إنسان لديه تصور لما يحيط به مما ذكرنا، لكن الناس يختلفون في مكانة تصوراتهم باختلاف درجاتهم، من حيث حصولهم على المعلومة، ونوعية تعلّمهم، وبصيرتهم إلى غير ذلك من الفروق الفردية بينهم.

وهذا الفهم لمعنى الفكر يتوافق إلى حد كبير ومفهومَ علماء النفس الاجتماعي للرأي العام. وعليه يمكن القول إن الفكر يساوي في كثير من مظاهره، ما يسميه علماء النفس الاجتماعي وخبراء الإعلام بـ"الرأي العام".

وإن كان ثمة فرق بين الأمرين، فهو أن الرأي العام قد يتضمن قضية تفرض على المجتمع إعلاميًّا أو سياسيًّا، وليست في الحقيقة من صميم اهتماماته، وربما لا تكون ضمن الأمور المؤثرة في حياته العادية. لكن وسائل الإعلام قد يكون لها مصلحة في فرضها على المجتمع، وهذا ما يحاول قادة الفكر دائمًا النأي بالمجتمع عنه، وذلك كي لا تكون بانفعالات الأمة خادمة لأصحاب المصالح الخاصة.

وثمة فرق آخر بين الرأي العام والفكر، وهو أن الأخير يُراد به تصورات نخبة معينة من المثقفين، أما الرأي العام، فالكل يشارك في تكوينه، وهذا الفرق قد لا يكون دقيقًا، بل قد يكون غير مسلَّم به، لأنه يحتاج إلى ضبط المراد بهؤلاء النخبة التي تستحق أن تستأثر بتسمية إنتاجها الذهني فكرًا، مع أن البشر -بشكلٍ عام- لديهم نزعة فطرية نحو الحق؛ بمعنى أن الجميع يريد الحق فيما يعرض له من قضايا، ولا فرق في ذلك بين النخبة وغيرهم، بل قد تكون النخبة أقل ميلاً إلى الحق من عامة الناس، باعتبار أنهم أكثر تعرّضًا للهوى الفكري والانتماء المدرسي من غيرهم. أما من سواهم، فإن لديهم تسليمًا لا شعوريًّا، بأنهم لا يمتلكون أدوات معرفة الحق في القضايا المتعلقة بالتصورات التفصيلية للواقع، ومن ثم الحكم من خلالها، وذلك لأن مصدر المعرفة المتفق عليه، هو الحس أو ما يقوم مقامه. فلما كان الحس متعذّرًا في الغالبية الساحقة من قضايا الحياة العامة إلا على أناس محدودين جدًّا، فإن الغالبية الساحقة يعطون ثقتهم لمن يتصورون أنه قد وصل إلى المعلومة بطريق الحس أو بأقرب الطرق إلى الحس، وأن هذا الموثوق صادق معه إما لملازمته لصفة الصدق، أو لأنه صاحب مصلحة في الصدق، ولعل قول الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(يوسف:٢١) يصدِّق هذه الفكرة، فالناس بشكل عام ليس لديهم أدوات العلم -بمعنى القطع والتحقق- مما يسعون إلى التحقق منه.

ولهذا نجد أن إقبال الناس على القيادات الفكرية إقبالاً طبعيًّا، لا يحتاجون إلى مَن يدلهم عليه، بل ربما صح القول بأنه فطرة. فالناس إذا لم يجدوا أمامهم مؤهلاً لقيادتهم فكريًّا، صنعوا لهم قائدًا على

مواصفاتهم الخاصة، ولعل هذا هو معنى قول الرسول ﷺ: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكنْ يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْق عالمًا اتخذ الناسُ رؤوسًا جهّالاً، فسئلوا فأَفتَوا بغير علمٍ فضلّوا وأضلّوا" (رواه البخاري).

ولك أن تتأمل في قوله ﷺ: "اتخذ الناس"؛ فالناس إذا لم يكن المؤهل لقيادتهم فكريًّا أمامهم، اتخذوا من تلقاء أنفسهم قائدًا فكريًّا ولو لم يكن مؤهلاً. والناس يعرفون الموهوب والذكي، ومَن يملك القدرات الثقافية والخطابية التي تمكّنه من التأثير وجذب الأتباع، لكن ليس كل مَن يستطيع تكوين قاعدة جماهيرية بهذه الصفات هو الأمثل حتمًا لقيادة الأمة فكريًّا.

آليات التوازن الفكري

وأعود هنا للحديث عن قولي السابق: ومن مفارقات الفكر أن سلوك طريق واحدة فيه -ولو كانت صحيحة- لا يؤدي بالضرورة إلى نتيجة واحدة، وهي مشكلة فلسفية قديمة أدت بكثير من الفلاسفة إلى القول بتعدد الحق، نظرًا لعجزهم عن تفسير اختلاف الآراء في القضية الواحدة مع اتحاد منهج البحث فيها.

وهم يعنون بالحق المتعدد؛ تلك النتائج المختلفة التي يصل إليها المفكرون عند استخدامهم الآلة الصحيحة لبلوغ الحق، وهي التي يسميها علماء أصول الفقه "أدوات الاجتهاد"، والتي بَنوا عليها قضيتهم الشهيرة: هل كل مجتهد مصيب؟ أم المصيب واحد وغيره معذور؟ حيث لا يعنون بالمصيب والمعذور مَن يتسوَّرون على المسائل ويعطون

فيها أحكامًا دون أن يكون طريقهم لذلك الآلة الصحيحة للاجتهاد.

ورأي الأصوليين وإن كان سياقهم له في قضايا الفروع الفقهية التي يسوّغ فيها الاجتهاد، إلا أن القاعدة صحيحة يمكن أن تنقل إلى جميع فروع الفكر الذي قدّمتُ تعريفه بأنه التصور الإجمالي والتفصيلي لواقع ما، من حيث كنهُه، وعوامل تكوينه، ومآلاته، وطرق تحسينه، وعلاج آفاته.

وعندما قسّم العلماء الإدراك إلى تصور وتصديق، فإنهم أردوا بذلك أن مَن لا يملك التصورات الصحيحة لا يمكن أن يصل إلى التصديقات الصائبة، وامتلاك التصورات الصحيحة هي في الحقيقة أدوات الاجتهاد في مسألة من مسائل الفكر.

وأخلُص من هذا إلى أن أول مقوِّم من مقومات التوازن الفكري، هو امتلاك التصورات الصحيحة عن كل قضية يُراد الحكم عليها سلبًا أو إيجابًا. والتصور إما أن يكون تصورًا أوليًّا ساذجًا كتصور الصور من جبال وأنهار وصحارى، أو تصورًا معقدًا وهو تصور المعاني كالحق والصدق والصواب والخطأ، وتصور المغيَّبات كالجن والملائكة، وكل صنفٍ من هذه التصورات يحتاج إلى جهد لامتلاكِه يختلف عن الجهد المراد للصنف الآخر. فحين أتصور الناقة لا أحتاج إلى مجهود ذهني كبير، لأنه بمجرد طروء الاسم على الخاطر، تنتج صورة مطابقة لوجود مثيلاتها في الذاكرة. أما حين أتصور حيوان الباندا، فأحتاج إلى مجهود ذهني أكبر لعدم وجود رصيد مطابق في الذاكرة، وربما لا أصِل إلى الصورة الصحيحة، وأحتاج في الوصول إليها إلى البحث عن صور مطابقة، ومع ذلك فإن المجهود الذي

يبذلـه الذهـن فـي تصـور الباندا، أقل بكثيـر من المجهـود الذي يبذله لتصور الروح والملائكة والحق والخطأ والصواب.

تأتـي مشـكلة التوازن الفكري حيـن يتعامل الذهن مـع التصورات المعقـدة بالطريقـة نفسـها التـي يتعامل بهـا مـع التصورات السـاذجة، فيبذل في كليهما مجهودًا ذهنيًّا متسـاويًا، عند ذلك سـتكون تصوراته في الأمور المركبة تصورات ساذجة.

إذن فالحصـول علـى تصورات صحيحـة هي أولى معطيات التوازن الفكـري، لأن التصـورات هـي مفـردات التفكيـر كمـا أن الحـروف هي مفردات اللغة. وربما أن التعبير لا يمكن أن يكون صحيحًا بغير حروفه الموضوعـة لـه، فالفكـر لا يمكـن أن يكـون مسـتقيمًا دون تصـورات صحيحة. والحصول على التصور الصحيح هو مسؤولية المفكر نفسه، وأيضًـا مسـؤولية المسـتهلك نفسـه، والقيـام بها -المسـؤولية المنوطة- يحتاج إلى جهد يتوانى الكثير ممن يمارسون الكتابة في القضايا الفكرية عن تحصيله. وكذلك المسـتهلكون للفكر، فلم يعدْ لديهم الجَلَد حتى على تحليل الأفكار إلى تصوراتها الأولية لفحصها. فجمـع التصورات عنـد كثيـر مـن الكتاب أو فحصها عند نسـبة أكبر من المسـتهلكين، يتم بطريقة متقاربة في كل القضايا التي يتطرقون إليها.

بعـد جمـع التصورات، تأتـي مرحلة إحداث النسـبة بينها لتكوين ما يسميه المناطقة بـ"التصديق" وهو -كما قدمت- الإدراك المتضمن للحكـم. فالتصديق هو نسـبة التصـورات إلى بعضها؛ فبعد أن أتصور القطـب الشـمالي، وأتصـور معنـى التجمـد، وأتصـور معنـى تمركـز الشمس وانحرافها، أحكم على القطب الشمالي بأنه متجمد. فقولنا:

القطب متجمد، تصديق مبنيّ على عدد من التصورات أدت النسبة الصحيحة لبعض إلى البعض الآخر إلى هذه النتيجة.

والأفكار الكلية أو الجزئية هي مجموعة من التصديقات، يجري العقل النسبة بينها لتكون الفكرة. وبذلك يمكن مناقشة كل فكرة من خلال نقد التصورات الأولية التي بنيت عليها، أو نقد أي من التصديقات المؤسسة لها، أو نقد النسبة بين التصديقات المكوّنة لها.

وكلما كانت التصورات ناشئة من مصادر صحيحة للتصور، كانت أكثر مناعة عند النقد. وكذلك النسبة بينها أو النسبة بين التصديقات تعتمد مناعتها على مدى صحة نسبة بعضها إلى بعض، أو ترتب بعضها على بعض.

مصادر التصورات

١- **الحس**: مصدر مقر من مصادر التصور، والتصورات الناشئة عن الحس هي أقوى التصورات على الإطلاق، ولذلك كان استخدام القرآن الكريم للتصورات الحسية كثيرًا -كمقدمات صغرى وكبرى- للوصول إلى نتائج عقلية كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية:١٧-٢٠)؛ فالإبل وخلقها، والسماء ورفعها، والجبال ونصبها، والأرض وتسطيحها، كلها تصورات مصدرها الحس، ولم يمنع ذلك أن تكون النسبة العقلية بينها طريقًا للوصول إلى نتيجة غيبية.

إلا أن الحس يبقى عاجزًا عن رصد كثير من التصورات التي

يحتاج الإنسان إلى الحكم عليها لحياته العامة الاجتماعية، أو لتسيير حركته العلمية، أو البرهنة على قناعاته الدينية. وهذا العجز حاول القدماء التخلص منه بطرق منها؛ اعتبار التواتر المعنوي قائمًا مقام الحس كتصور المدن النائية، أو الشخوص التاريخية القديمة، وهو حل لم ينكره القرآن بل أقره، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾(العنكبوت:٣٨).

فالأمم السابقة -كعاد وثمود- كانت معروفة عند العرب بطريق التواتر المعنوي، وأقر الله هذه المعرفة وبنى ﷻ خطابه عليها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾(السجدة:٢٦).

٢- **الفطرة**: وهي وإن كانت التصورات المنبعثة عنها أقل بكثير مما ينتج عن المصادر الأخرى، إلا أنها تدل على أعظم مدلول وهو الله، كما تدل على نسبة الخلق إليه ﷻ ونفي الشريك عنه، فهي تدل على الله تعالى تصورًا وتصديقًا، وهذا مدلول قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٧٢). أما ما سوى ذلك من مدلولات، فمن الفلاسفة المثبتين للفطرة مَن يثتبها، ومنهم مَن ينكرها.

٣- **الوحي**: وهو مصدر يكاد يكون وحيدًا لتصورات مفردات عالم الغيب، كالملائكة، والجن والشياطين، والجنة، والنار،

والحوض، والصراط، ونعيم القبر وعذابه، وبذلك يكون مصدرًا وحيدًا أيضًا لما يتعلق بها من تصديقات. وهو أيضًا مصدر وحيد لتصور مفردات الدين، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وهو أيضًا مصدر وحيد للتصديقات الناشئة عن نسبتها إلى بعضها.

٤- **خبر الموثوق**: وهو مصدر صحيح للتصورات، شريطة أن يكون الموثوق منطلقًا في نقله عن أحد مصادر التصور الصحيحة المتقدمة.

ومن الطبيعي أن نسأل عن القعل؛ أليس هو أيضًا مصدرًا من مصادر التصورات؟ والجواب؛ قد يتبادر إلى الذهن أن التصور هو عملية عقلية صرفة، وهذا حق، لكن التصورات موجودة في الخارج، والتعرف عليها يتم بالطرق الأربع المتقدمة، وليس للعقل قدرة على استحداث تصورات من تلقاء نفسه، وإنما هو ذاكرة لتلك التصورات التي يتعرف عليها العقل بطريق الحس، أو الوحي، أو الخبر المتواتر، أو خبر الموثوق.

نعم، إن بمقدوره تكوين الصورة بطريق التذكر، أو بطريق التركيب، أو بطريق الانتزاع والتخيل. بل إن العقل هو الوسيلة الأولى للربط بين المتصورات لإحداث النسبة التي ينتج عنها التصديق، كما أنه الفاعل الأقوى أيضًا في الربط بين التصديقات للحصول على الفكرة أو مجموعة الأفكار.

كل ذلك صحيح، لكنه لا يعني أنه مصدر من مصادر التصور، بل هو الآلة الوحيدة لحفظها والتحكم فيها.

ومن أسباب الاضطراب الفكري اعتبار العقل مصدرًا للتصورات، فإننا نجد أن هناك فئة تقيم تصديقاتها على تصوراتٍ مصدرها العقل، والحقيقة أن كل تصور مصدره العقل، ليس له وجود خارجي حقيقي، فهو إما متخيل وإما موهوم. وبما أن التصديقات -ومن ثم الأفكار- تعد التصورات هي لبناتها، فإن كل تصديق مبني على تصور موهوم أو متخيل لا يمكن أن ينتج عنها أفكار متزنة.

التطرف والغلو باسم الدين وآثاره السلبية على الإسلام[1]

أ.د. محمد عمارة[*]

التطرف هو الذهاب إلى طرف الموقف أو الرأي، والبعد عن الوسط والوسطية والتوازن والاعتدال، سواء أكان ذلك التطرف في الفكر -الديني وغير الديني- أو في الفعل والسلوك. وهذا التطرف هو الذي عبر عنه الفكر الإسلامي بمصطلح "الغلو"، أي المغالاة والبعد عن التوسط والاعتدال.

وهذا الغلو الديني -ككل ألوان الغلو ومنها الغلو اللاديني- هو تجاوز الحد الذي هو الوسطية الإسلامية الجامعة لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والمتناقضة، أقطاب غلوَّي الإفراط والتفريط.

ففي "العقلانية" -مثلاً- غلو إفراط، هو الذي يؤلّه العقل، وينكر أن يكون الوحي والنقل علمًا أو مصدرًا من مصادر العلم، ويرفع شعار التنوير الوضعي الغربي العلماني: "لا سلطان على العقل إلا العقل وحده" مؤلّهًا العقل، وناقلاً لقدراته من "النسبي" إلى "المطلق".

ويقابل غلو الإفراط هذا ويناقضه غلو تفريط، يتنكر للنظر

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٤٧ من مجلة حراء.

[*] كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

العقلي، ويفرط في الاحتكام إلى نعمة العقل التي أنعم الله بها على الإنسان، والتي هي جوهر الإنسان ومعيار تميزه وامتيازه على غيره من المخلوقات. ويكتفي أصحاب هذا الغلو بالوقوف عند ظواهر النقل وحرفية النصوص، دون اعتبار لمقاصد هذه النصوص.

بينما حد الوسطية الإسلامية في هذه العقلانية، هو الموازنة بين العقل والنقل، وجمع عناصر الحق والعدل منهما معًا، وذلك بالتأليف بين النقل الصحيح والعقل الصريح على النحو الذي يكوِّن منهاج النظر "بالعقلانية المؤمنة" التي تقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل بالنقل، نافية تناقض النقل والعقل؛ لأن نقيض العقل ليس النقل وإنما هو الجنون.

وعن هذه الوسطية الجامعة، والرافضة لغلوي الإفراط والتفريط في علاقة العقل بالنقل (الشرع)، تحدّث حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) فقال مصورًا تصويرًا نموذجيًّا منهاج الوسطية الإسلامية الجامعة، الرافض لغلوي الإفراط والتفريط في العقل، والجامع لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والأطراف المتناقضة: "إن أهل السنة قد اطلعوا على طريق الجمع بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، فمثال العقل البصر السليم من الآفات والآذاء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء، فأخلَق بأن يكون طالب الاهتداء، المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر؛ في غمار الأغبياء. فالمعرض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان،

فالعقل مع الشرع نور على نور"[١].

وفي الممارسة والسلوك الديني، هناك غلو الإفراط الذي يدير الظهر للدنيا وطيباتها، ويجعل التدين الإسلامي صورة من الرهبانية التي ابتدعها النصارى دون أن تكتب عليهم، والتي تعذب الجسد طلبًا لخلاص الروح.

وهناك -على النقيض من هذا الغلو- غلو التفريط في الالتزام بالشعائر والروحانيات، وإطلاق العنان للغرائز الحيوانية دونما تهذيب.

بينما حد الوسطية الإسلامية الجامعة في الممارسة والسلوك الديني، هو الجمع -في توازن واعتدال- بين الدين والدنيا، والدنيا والآخرة، وعمران الأرض وتزكية النفس، والاستمتاع بالطيبات الدنيوية الحلال على النحو الذي يجعل هذا الاستمتاع الآني سبيلاً للسعادة الأخروية التي هي خير وأبقى.

وإذا كان "الشح" غلو إفراط يجعل صاحبه وكأنما قد حجر على نفسه الاستمتاع بطيبات ما وهبه الله، فإن "الإسراف السفيه" هو غلو تفريط يستوجب الحجر على صاحبه، كي لا يبدد ما وهبه الله فيما لا يرضى عنه الله. بينما حد "الكرم" الذي يمثل الوسطية الجامعة "للعطاء" الذي غلا فيه المسرف، و"التدبير" الذي غلا فيه الشحيح، هو الموقف الوسطي المحمود الذي برئ من غلوي الإفراط والتفريط معًا.

---

[١] الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي، ص:٢-٣، طبعة القاهرة، مكتبة صبيح، دون تاريخ.

وإذا كانت الوسطية الجامعة -التي هي خصيصة إسلامية- قد جعلت المنهاج الإسلامي شاملاً للدين والدولة، والفرد والأمة، والفرائض الفردية والفرائض الاجتماعية، والتشريع والتنفيذ، والمبادئ المرجعية والنظم والمؤسسات والآليات... فإن مخاصمة "السياسة" وإهمالها، هو لون من غلو التفريط في الاهتمام بأمور الناس، وإقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما أن اختزال الإسلام في السياسة والسيف والقفز على الدولة هو لون من غلو الإفراط، بينما حد الوسطية الجامعة هو الذي يجعل المنهاج الإسلامي شاملاً -في توازن يراعي الأوزان والأولويات- لكل مناحي الحياة ولما بعد هذه الحياة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢-١٦٣)؛ فالدين لله، وأيضًا الوطن -الذي هو للجميع- هو والجميع لله.

والغلو الديني -إفراطًا كان أو تفريطًا ككل ألوان الغلو- قديم قدم الفكر الإنساني، والسلوك البشري الذي تحكمه وتوجهه الأفكار والمعتقدات والعادات. ولقد ورد التعبير القرآني المباشر عن الغلو في حديث القرآن الكريم عن أهل الكتاب: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾(النساء:١٧١).

ومنذ صدر الإسلام، لم يخل المجتمع الإسلامي من الغلو

والغلاة، سواء أكان ذلك غلو إفراط أم غلو تفريط. فالذين استقلوا أعمالهم الصالحة، فعزموا على صيام النهار أبدًا وقيام الليل دائمًا، واعتزال النساء والزواج والإنجاب كلية، قد أرادوا الإسلام غلو الرهبانية المبتدعة، بينما هو الوسطية الجامعة والمتوازنة والعادلة.

وأهل الغلو في التصوف -الباطني غير الشرعي- قد فرطوا في الدنيا لحساب الآخرة، وفي الماديات لحساب الروحانيات، فاعتزلوا الدنيا والدولة والسياسة، وزهدوا في الطيبات المباحة، ناسين أن هذه هي الطريق القويمة إلى سعادة الآخرة.

بينما كان هناك الذين اختزلوا الإسلام في السيف والدولة والحكومة والسلطان -مثل الخوارج- فتنكبوا -رغم شرف المقاصد- منهاج الإسلام في التغيير، وهو الدعوة والتربية وصناعة الإنسان السوي بإعادة صياغته صياغة إسلامية؛ ليثمر المجتمع الإسلامي السوي دولة الأسوياء التي تحافظ على بقاء هذا المجتمع سويًّا.

ولقد جاء في الحديث الشريف -الذي هو البيان النبوي للبلاغ القرآني- النهي عن كل ألوان الغلو في الدين -كل مناح الدين- فقال: "أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" (رواه الإمام أحمد)، وكذلك النهي عن الغلو في التعامل مع القرآن الكريم إفراطًا أو تفريطًا، فقال: "اقرؤوا القرآن ولا تغلوا فيه ولا تجفوا عنه" (رواه الإمام أحمد).

وإذا كان الخوارج قد ارتادوا في التاريخ الإسلامي ميدان "الغلو

المنظم" -كفرقة- عندما جعلوا حاكمية الله ﷻ-التي هي قضاؤه التكويني والتشريعي- نافية لحاكمية البشر الحاكمين في الدولة والسياسة والاجتماع، فخرجوا بذلك عن حد الوسطية الإسلامية الجامعة بين سيادة الحاكمية الإلهية المتمثلة في شريعته الإلهية، وبين سلطة حاكمية البشر -أمة ودولة- التي هي حاكمية الخلفاء المستخلفين لله، والتي قد تكون حاكمية بشرية "بارة"، وقد تكون حاكمية بشرية "فاجرة"؛ لأنها لا تتمتع بالعصمة التي تتمتع بها شريعة الله والأنبياء المرسلون.

إذا كان الخوارج قد بدأوا أولى حلقات هذا "الغلو المنظم" -كفرقة- في الفكر الإسلامي وفي وضع هذا الفكر المغالي في الممارسة والتطبيق -هبّات وثورات ومعارك استنزفت قواهم وقوى الدولة الإسلامية لأكثر من قرن من الزمان- فإن الوسطية الإسلامية الجامعة لحاكمية الله، ولحاكمية البشر المستخلفين عن الله، قد كانت واعية وحاضرة في مواجهة هذا الغلو منذ اللحظة الأولى لولادته.

فمنذ التحكيم في الصراع بين الراشد الرابع علي بن أبي طالب (٦٠٠-٦٦١م) كرم الله وجهه، وبين معاوية بن أبي سفيان ﷺ (٦٠٣-٦٨٠م) ومن معه من أهل الشام عقب معركة "صفين" (٦٥٧م)، وعندما هتف الخوارج في معسكر علي ﷺ: "لا حكم إلا لله"، مكفرين الذين ارتضوا التحكيم والحاكمية البشرية في هذا النزاع السياسي، كانت الوسطية الإسلامية الجامعة حاضرة على لسان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ الذي أجابهم: "إنها كلمة حق يراد بها باطل! نعم، إنه لا حكم إلا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة

إلا لله! وإنه لا بد للناس من أمير، بر أو فاجر"[١].

ومن "المفارقات" التي تدخل في باب "الموافقات"، أن شعار "الحاكمية" هذا ومصطلحها بمعناه "الخوارجي" الذي جنح أصحابه إلى جعل الحاكمية الإلهية نقيضًا نافيًا لأية حاكمية بشرية والذي بدأت به مسيرة "الغلو المنظم" في التاريخ الإسلامي، قد توارى -هذا الشعار- عن أدبيات الفكر الإسلامي مع طي التاريخ الإسلامي لصفحة الخوارج كثورة مسلحة مستمرة. وظل هذا المصطلح والشعار متواريًا حتى بعثه من مرقده العلامة المجاهد أبو الأعلى المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩م) رغم ما بين المودودي والخوارج من خلاف واختلاف، فكان أن بدأت مسيرة جماعات الغلو الإسلامي المعاصر تحت رايات شعار الحكمية من جديد.

لقد بدأت هذه الجماعات من "بعض" -ونؤكد على كلمة "بعض"- عبارات المودودي التي كتبها في واقع هندي وهندوكي له ملابسات سياسية وحضارية خاصة، كان المسلمون فيها ٢٥٪ من سكان الهند قبل التقسيم، وكانت الحاكمية البشرية في ذلك الواقع إما سلطة الاستعمار الإنجليزي، أو السلطة الهندوكية، وكلتاهما عازمة على سحق الهوية الإسلامية للمسلمين الهنود. ولذلك -ولهذه الملابسات الهندية الخاصة- رفض المودودي في بعض نصوصه الحاكمية البشرية التي رآها نقيضًا للحاكمية الإلهية!

ثم جاء الخطأ المزدوج لجماعات الغلو الإسلامي المعاصر عندما نقلت هذا الشعار من الهند إلى الواقع العربي، فكان خطأً مزدوجًا تمثل في:

[١] نهج البلاغة، علي بن أبي طالب، ص:٦٥، طبعة دار الشعب، القاهرة.

• الأول هو تجريد عبارات المودودي عن الحاكمية من ملابساتها السياسية الخاصة التي أفرزتها، وتحويلها إلى "دين ثابت" صالح للتطبيق في أي مكان، فبدأت هذه الجماعات توظيف عبارات المودودي هذه في واقع عربي يمثل المسلمون فيه ٩٦٪ من السكان، فتحول "الفكر السياسي" النسبي والمرتبط بالواقع الذي يثمره ويحدد طبيعته وتطوره، إلى "دين ثابت" صالح لكل زمان ومكان.

• أما الخطأ الثاني الذي وقعت فيه جماعات الغلو الإسلامي المعاصر عندما انطلقت من عبارات المودودي عن "الحاكمية"، فلقد تمثل في انتزاع النصوص الملتبسة والموهمة والمتجزأة من كتابات المودودي حول الحاكمية، وإهمال المنهاج العلمي في القراءة الكاملة للمشروع الفكري والسياسي للمودودي، تلك القراءة التي تضبط مفهوم المودودي لمعنى مصطلح الحاكمية، والتي تنصف الرجل عندما تبرئه من المسؤولية عن فكر وسلوك جماعات الغلو هذه، التي ظلمته عندما زعمت أنها قد بدأت من عنده، كما ظلمه أهل الغلو اللاديني عندما سلّموا بنسبة جماعات الغلو هذه إلى هذا الداعية الإسلامي العظيم.

ولجلاء هذه الحقيقة، وسلوكًا لمنهاج الدراسة النقدية الموضوعية التي تعطي كل ذي حق حقه، ننبه إلى أولى مقولات الغلو الإسلامي المعاصر، مقولة "الحاكمية"وثمراتها الفكرية، وخاصة:

مقولة "جاهلية" حضارتنا الإسلامية ومجتمعاتنا ودولنا الإسلامية المعاصرة، ومقولة "كفر وتكفير" هذه المجتمعات المعاصرة ودولها

وحكوماتها، بل والقول "بارتداد الأمة الإسلامية" عن الإسلام منذ قرون، وكذلك التفسيرات المغالية والخاطئة لفكرة "الفرقة الناجية" التي جعلت وتجعل قلة من الغلاة يتصورون أنهم وحدهم هم "الفرقة الناجية"، وأن الأغلبية الساحقة من سواد الأمة وشعوبها -فضلاً عن حكوماتها- هالكون في نار الجحيم.

تلك المقولات التي جعلت هؤلاء الغلاة يفاصلون المجتمعات الإسلامية، ويحاولون الانفصال عنها، بالتكفير والهجرة حينًا، وبالعزلة الشعورية حينًا، وبالاستعلاء على سواد الأمة في كل الأحايين، الأمر الذي جعل من هؤلاء الغلاة "خوارج" على الأمة والمجتمعات الإسلامية فضلاً عن الدول والحكومات، سواء أكان "خروجهم" مسلحًا أم غير مسلح، وذلك على الرغم مما يحسبون ويعتقدون من بعد الشقة وشدة الخلاف بينهم وبين الخوارج القدماء.

كيف نتخذ سبيل الرشد سبيلا؟[1]

د. عبد الحميد عشاق[*]

الرشد هو قمة وعي الإنسان واكتماله ونضجه، وصمّام الأمان من أوضاع التحلّل والفساد التي قد تؤول إليها حياة الأفراد والجماعات. إنه أعظم خصال الإنسان الصالح، والجماعة الصالحة، والأمة الصالحة، ولذلكم كثيرًا ما نسمع اليوم عن الحاجة إلى الحَكامة الراشدة، والحُكْم الرشيد، وترشيد الاستهلاك، وترشيد النفقات، والتدبير الأرشد للموارد... وما إلى ذلك.

ولما كان مبنى الرشد على طلب الأكمل والأحسن وتحري الصواب في المواقف والآراء والتصرفات الفردية والجماعية، فإن مشروع الإسلام العام هو صياغة نموذج ثقافي ومجتمعي من الرشد لأنفسنا وحياتنا ومؤسساتنا وعلاقاتنا المختلفة، وترشيد السلوك الإنساني في جميع مناشطه، والارتقاء به إلى أسمى تجلياته ومقاماته. وأساس هذا المشروع وديدنه ودأبه تعليم الرشد، وترسيخ مبادئه وقيمه في الوعي والثقافة والسلوك، وتجديد صلة الأمة به فكرة وتربية

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٥٠ من مجلة حراء.

[*] عضو المجلس الأكاديمي للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

ومنهاجًا، والتخلق به علمًا وفعلاً وحالاً. ولذلكم كانت ميادين التربية -ولا تزال- قادح زناد المبادرات التجديدية والترشيدية في الأمة، إما باعتبار التخصص الوظيفي الذي تضطلع به في شحذ الهمم، وتزكية النفوس، وحفز الإرادات على التمسك بالرشد والعزيمة عليه، وإما باعتبار حساسيتها الشديدة للأزمة الفكرية والأخلاقية التي تتشخص في مظاهر التناقض والتخلف والاغتراب بين القول والفعل، أو بين المبدأ والواقع، أو بين الظاهر والباطن، أو بين الشعار وحقيقة الحال، مما يجعل بعض أطراف الأمة في خصومة مع ذاتها ومع التاريخ ومع العصر، أو في حالة فقدان التوازن والانسجام بين الضمير الديني والقيم الأخلاقية، وبين الواقع التاريخي المتغير.

ولا شيء يسرع بالمصالحة بين الضمير الديني والواقع المتغير سوى التزام الرشد واتخاذ سبيله سبيلاً، وهذا جوهر ما يشغل المشروع التربوي الرسالي، ويكابد المشاق والتحديات لتحقيقه وإنجازه:

إنه يقصد إلى المصالحة أو المواءمة بين الدين والدنيا، وبين الأخلاق والسياسة، وبين الأخلاق والاقتصاد، وبين الدين والتدين؛ إذ يتحول التدين في أحيان كثيرة إلى طقوس آلية، ورسوم جامدة، وصور خالية من المعنى، بل يتحول التدين إلى مشروع ضد الدين نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(التوبة:٣٤)، وقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي

الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(التوبة:١٩)، وقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران:٧٩).

ولطالما نبّه القرآن المجيد إلى آفتين ابتلي بهما أهل الملل السابقة: أولاهما استغلال القداسة؛ أعني أن يأكل المرء بدينه. والثانية التظاهر بالقداسة؛ أعني المراءاة. وفي كلا الحالين يفصل الدين عن روحه، ويحرف عن أصله ومقصده، ويصير مفتقرًا إلى روح ومعنى لاستعادة فتوته وقوّته، على نحو ما صنع الشيخ أبو حامد الغزالي ﷺ بتأليف كتابه الفذ "إحياء علوم الدين". فالحاصل، أن مشروع الترشيد الذي تقترحه الرسالة التربوية الإسلامية لإصلاح السلوك الإنساني، يقوم على مبدأ الموازنة بين جهدين:

الأول: المجاهدة الفكرية والنفسية ضد كل نزوة أو رغبة تحرف الإنسان عن أمانته ورسالته، وهذا يتسق مع مقصد عظيم من مقاصد الشريعة نبه إليه أبو إسحاق الشاطبي بقوله: "المقصد الشرعي من وضع الشريعة، إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد لله اضطرارًا".

والثاني: توحيد وتنسيق جهود المجتمع الإنساني ضد كل أشكال الطغيان، أو الاستضعاف الناشئة عن وثنية السلطة والثروة والمعرفة المزيّفة التي تبعده عن سبيل الله تعالى. ويمتاز الإسلام بتأطير هذا المشروع بوسائل وتراتيب وأدبيات خاصة ضمن رؤية كلية شاملة، تهدف إلى حفظ نظام العالم واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان؛ ويشمل صلاحه تزكية نفسه، وصلاح عقله

وعمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات البيئة التي يعيش فيها.

الرشد في القرآن الكريم

ورد لفظ الرشد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة بصيغ متعددة، لكننا إذا تتبعنا موارده في كتاب الله ﷻ نجده لا يخرج عن المعاني التالية:

• الإيمان والتوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦)، وقوله تعالى على لسان الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا *يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾(الجن:١-٢)، والرشد في الآيتين؛ بمعنى الإيمان والتوحيد كما ذكر الزمخشري في الكشاف.

• الهداية والاستقامة، كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦)، وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾(الكهف:١٠)، والمعنى: يسر لنا كل سبب موصل إلى الهداية والرشد.

• الخير والنفع، كما في قوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾(الجن:١٠)، أي خيرًا.

• الحق والصواب والسداد، كما في قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٣٨)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾(هود:٩٧)، أي سديد.

• حسن التصرف في الأمور، كما في قوله عز من قائل: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ

أَمْوَالَهُمْ﴾(النساء:٦)، وهذا المعنى هو الذي نجده متداولاً في اصطلاح جمهور الفقهاء، وبهذا المعنى يكون الرشد ضد السفه.

وهذه المعاني الخمسة للرشد في القرآن الكريم، جميعها لا تخرج عن أصل الاستعمال اللغوي الذي هو الاستقامة والصلاح والاهتداء إلى طريق الخير في الدين والدنيا، وإصابة وجه الأمر وحسن التصرف. أما الرشد في الاصطلاح العام، فهو ضرب من كمال العقل أو نوع من الكمال الروحي والمعنوي، بمعنى أن يكون للإنسان قدرة على تدبير أموره على سبيل الاستقلال والسداد والحكمة، والمحافظة على طاقاته المادية والمعنوية، والانتفاع بها.

ولقد تواردت أقوال أساطين الحكمة والفلسفة على هذا المعنى بملاحظة أن مناط الرشد وملاكه، هو عمل العقل النقدي الصارم الذي ينتج معرفة إبداعية جديدة، أو ببساطة حسن استخدام العقل فيما يعرض له، وحسن استخدام العقل يتعلق في المقام الأول بقواعد المنهج التي لا تترك مجالاً للشك والتخمين، حين تستبعد الفروض المزيفة، والظنون المحتملة، وتنطلق من الاستقلال في التفكير، وعدم الرضا بالتقليد، ووعي الأخطاء على سبيل الدوام ..إلخ.

مبدأ الرشد

وفي هذا السياق يقرر الأستاذ طه عبد الرحمن، أن مبدأ الرشد مبني على ركنين رئيسين، أولهما الاستقلال؛ إذ يستغني الإنسان الراشد عن كل وصاية فيما يحق له أن يفكر فيه، ويتطلع إلى أن يشرع لنفسه ما يجب فعله أو تركه، فترسخ بذلك ذاتيته. وهكذا، فالإنسان الراشد

منطلق الحركة قويّ الذات. الثاني الإبداع؛ إذ يسعى إلى أن يبدع أفكاره وأقواله وأفعاله، وأن يؤسس ذلك كله على قيم جديدة يبدعها من عنده، أو على قيم سابقة يعيد إبداعها حتى كأنها قيم غير مسبوقة. وهكذا فالإنسان الراشد لا ينِي يبدع حياته. والرشد أمر عام يتناول جوانب الحياة كلها، ويشمل السلوك الإنساني ظاهره وباطنه، ويتعلق بالجانب النظري منه والعملي، فإذا ألهم المرء الرشد فيما يفكر فيه، وفيما يحس به، وفيما يحاوله ويتصرف به؛ هُدي إلى صراط مستقيم.

أما حين يسلب الرشد فإنه يتخبط خبط عشواء، ويضرب أخماسًا في أسداس، ويظل غارقًا في ظلمات التيه والغي. وقد بين الله ﷻ سبب إضاعة الرشد وفقده في آية عظيمة الشأن فقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾(الأعراف:١٤٦). وهذه الآية وصف بليغ للإنسان فاقد الرشد -سواء كان فردًا أم جماعة- وفيها دلالة إيماء على أن هذا الموضوع، جدير بأن تتأمل الأمة أصوله وقواعده ومصاديقه في النفس والتاريخ.

ترى كيف فقدنا الرشد؟ وهل تبيّن المجتمع الإنساني الرشد من الغي حقًّا؟ وما حقيقة الرشد وما علاماته؟ وما السبيل إليه؟ وهل يمكن أن يصدق علينا ما أخبر الله به عن قوم من الجن وقد كانوا في غاية الحيرة والتيه ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؟ لكن لله درهم حين سمعوا القرآن أول مرة، وخالط القرآن شِغَاف قلوبهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ

بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا ۞ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۞ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۞ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾(الجن:١٣-١٦).

أجل، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾، كنت دائمًا أسأل نفسي لماذا بلغ اهتمام الجن بمسألة الرشد هذا المبلغ الذي تصوره آيات السورة نفسها؟ فالقرآن في أعلى مقاصده برأيهم دعوة إلى الرشد، والإسلام بكل اختصار هو سبيل تحري الرشد.

والجواب، أن القوم كانوا أصحاب حضارة وعلم وقوة واقتدار لا مثيل لها ولا نظير بالنسبة لمقاييس التجربة الحضارية الإنسانية حتى الآن، ومع ذلك كانوا في قمة التهارج والشقاء والضياع والبؤس. وربما كان ما بلغوه من علم وعلو واقتدار، سبب شقائهم وفتنتهم.

فإذن، حقيقة الإسلام -كما دلّت الآيات- هي تحري الرشد، والتحري بمعنى الحرص الشديد على اتباعه والتزامه، والأخذ بأسبابه، والسير على طريقه. ولكن لا يمكنك أن تتبع سبيل الرشد وأنت لا تعرفه، ولم تميّزه، ولم تتبيّن معالمه. فلذلك كان أفضل طريق للوصول إلى هذا البيان والتبين، سلوك سبيل العلم والمعرفة: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(الكهف:٦٦).

فالمعرفة ركن أساس، ومقدمة ضرورية لتحصيل الرشد. فهل من سبيل إلى تعلّم الرشد؟ هل من سبيل إلى معرفة تكسب صاحبها مَلَكة التمييز بين الرشد والغي؟ كيف نتعلم الرشد في مرابعنا التربوية ومناهجنا التعليمية؟ هل قيمنا التربوية تعترف بقيمة الرشد وتعلي

من شأنها؟ ولكن لماذا يستجيز بعضهم لنفسه استعمال القهر والجبر والترهيب في التربية والله تعالى يقول ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(البقرة:٢٥٦)؟ كيف يترشّد سلوكنا السياسي والثقافي والاجتماعي؟ وكيف يقوم المجتمع والدولة على مؤسسات راشدة؟

وقد يتداعى إلى الخاطر هنا أنني أسوق هذه الأسئلة محاولة للجواب عنها، كلاّ، إنما المراد إثارة المعنى المغمور، ولفت الانتباه إلى أهمية الأسئلة ذاتها وإمعان النظر فيها. وربما يكون التهمم بالسؤال والاشتغال به أحيانًا، أجدى وأنفع من الاهتمام بالجواب. وأتصور -بالمناسبة- أن مقدمة الرشد وشرطه وبدايته إدمان التفكير في السؤال، والاشتغال بالفكرة كما أثنى الله على خليله سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(الأنبياء:٥١)، وقال تاج الدين بن عطاء الله: "الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له". ومعلوم أنه حين تستغلق مسألة ما على فهمنا وتكون محل التباس واشتباه، فمعنى ذلك أننا لم نعطها ما تستحق من النظر والتأمل، وهكذا يبدأ الإنسان بداية خاطئة.

وقديمًا قال فرنسيس بيكون: "إن سبب الانحطاط والتخلف، اشتغال المرء بأفكار وقضايا خاطئة". وفي آية الأعراف التي هي أصل هذا البحث وقوامه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾(الأعراف:١٤٦) تنبيه على العلة الكبرى، أو علة العلل التي تجعل الإنسان فاقدًا للرشد، حتى إنه يرى سبيله، ويعرف محجته وطريقه، ومع ذلك لا يتبعه ولا يستطيع السير فيه. هذه العلة

هي علة التكبر في الأرض بغير الحق، إنها المشكلة الكبرى التي يعاني منها الإنسان في مختلف أطواره وتجاربه الحضارية. التكبر في الأرض بغير الحق، هو العدو الألد، والداء العضال لمشروع الترشيد؛ إما بسبب ما يحجبه من رؤية أدلة الرشد وحججه ودلائله، وإما بسبب ما يُخْلفه في النفس من أسباب الاستخذاء والاستنكاف عن العمل به. لأن الإنسان قد يعرف الرشد ولا عزم له عليه، وهذه مشكلة أخرى، بمعنى؛ يعدم الإرادة الباعثة على العمل به وبمقتضاه. ولذلكم كان نبينا ﷺ يقول: "اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرّشد" (رواه الإمام أحمد). فلذلك نقرّر هنا ما يلي:

• إن العمل بالرشد والثبات عليه، واستمرار العزيمة عليه، لا يقلّ شأنًا وأهمية عن معرفة الرشد وإدراكه وتبيُّنه، وكلاهما تحدّ كبير، وابتلاء عظيم للإنسان المعاصر بالنظر إلى النسق السلوكي والقيمي الذي تقوم عليه الثقافة السائدة في العالم. عالمنا بحوادثه وفتنه وأحواله يدع الحليم حيران، كأن فلسفته ووجهته تقوم على نبذ الرشد ومناقضته ومحاصرته في أضيق زوايا الحياة. إن عبادة المال، وأصولية السوق، والرّبا، والثراء السريع، والمتاجرة بالحرب، والمتاجرة بالسياسة، والتسلّق الاجتماعي، وحبّ الدعة والترف، والإدمان، والمخدرات، والقمار، والاكتئاب، والطغيان والفساد، واحتراف القتل، والعنف، والعنف المضاد، والحسد، والأنانية، والجنس، والخلاعة، والمثلية، والشذوذ... كلّها متاهات للاستلاب الذي تتورّط فيه الحشود البشرية كل يوم، وتستحوذ عليها مؤثرات مستفزة تسحق وعيها بالرشد، وقدرتها على تمييزه،

والعمل به، رغم الاقتدار والتطور الكبيرين الذين حققهما الإنسان في حضارة المعرفة، ومناهج البحث، وتكنولوجيا المعلومات، ووسائل الاتصال، ومصادر الطاقة، ورفه العيش. ولكن مع ذلك هناك مفارقة كبرى بين البعد المادي والبعد الإنساني في أوضاع العالم وأحواله على جميع الأصعدة، كما نبّه عليه الباحث الأمريكي صاحب كتاب "جنون القوة" بقوله: "لقد وضعنا رجلاً على سطح القمر، ولكن أقدامنا على الأرض غائصة في الوحل". فإذا أردنا للتصوف أن يقوم بدور رسالي رائد في تصحيح هذه المواضعات وترشيد السلوك الإنساني، فعليه أن يعمِد أولاً إلى تحريره من كارثة الاستلاب الثقافي والقيمي التي تسكن في قلب ثقافة العصر، والتي يتردّى في أتُونها يوميًّا خلق غفير من الناس. ومعنى التردّي هنا عدم القدرة على ضبط النفس، وفَقْد الاستعداد الفطري للتسامي والارتقاء إلى فعل الأفضل.

وأختم هذا البحث بآيتين عظيمتين لا بد أن ينطلق منهما مشروع الترشيد في صياغة مفرداته وبرامجه واقتراحاته، لتحقيق مزيد من العمق والفعالية والسداد:

الأولى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦).

والثانية قوله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾(الحجرات:٧). فمشروع

صناعة الرشد لا بد أن يقوم على ثلاث دعامات متكاملة متساندة هي:

دعامة "فليستجيبوا لي": إذ الاستجابة لأمره مع الإيمان، هو الذريعة إلى جميع قيم الرشد ومحاسنه ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، فلا رشد مع الغفلة وانقطاع الصلة بالله والاستهانة بأمر الله وطاعته، ولا رشد مع جفاف الروح وهزالها، ولا رشد مع التكبر في الأرض بغير الحق، وترك الإذعان للأدلة والتسليم بها.

ودعامة السنة: إذ السنة هي الرشد كله، ولذلك نبه الله ﷻ على ضرورة الحرص على اتباعها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾، "وابتداء الجملة بـ"اعلموا"؛ للاهتمام، وقوله: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ﴾ خبر مستعمل في الإيقاظ والتحذير، فالمقصود إعلام الأمة باتباع ما شرع لها رسول الله ﷺ من الأحكام ولو كانت غير موافقة لمزاجها ورغبتها. وليتأمل بعد ذلك كيف جمعت الآية في إيجاز وإعجاز أسباب الرشد بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وكيف نبهت إلى نواقضها وأضدادها بقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾.

• ودعامة الاستقلال المبدع الذي يستدل عليه بحسن التدبير، وصحة النتائج، وصلاح الأعمال، وإصابة مراشد الأمور ومقاصدها، وفي الآثار "ولا عقل كالتدبير" ومن ثمارهم تعرفونهم.

فإذا أردنا للمشروع التربوي الإسلامي أن يسهم في ترشيد السلوك الإنساني، فلا بد أن يستقر على أجنحة الاستجابة والإيمان، والاعتصام بالسنة، والعلم الاستقلالي المبدع.

ظاهرة الانحراف الفكري وطرق علاجها[1]

صابر عبد الفتاح المشرفي[*]

لقد كان للمصلحين دور هام في التصدي لظاهرة الانحراف الفكري غلوًّا وتفريطًا، والتعامل معها من خلال الاستهداء بالكتاب والسنة، وتتبع مبادئهما للقضاء على هذا الأمر في مهده.

ومن أبرز من تعاملوا مع هذه الظاهرة في وقتنا الحاضر، المجدد الداعية والمصلح التركي الأستاذ محمد فتح الله كولن، فقد وفقه الله مع مجموعة من رجال "الخدمة" الذين انطلقوا معه في سبعينيات القرن الماضي في إنجاز مشاريع وتأسيس مؤسسات في أكثر من مائة وستين دولة حول العالم، ما بين مدارس حديثة، وآلافٍ من مراكز الدعم المدرسي والمراكز الشبابية، وعشرات الجامعات والمستشفيات والمنظمات الإغاثية. وهذه المؤسسات والحلقات التطوعية التي تشكلت حولها، استفادت من الشباب الموهوبين، والشباب المتخصصين، معلمين ومرشدين، تربويين ومدربين ومساعدين.. فمكّنتهم من أن يحققوا لأنفسهم شخصيات سليمة متوازنة، وينمّوا لديهم شعورًا بالانتماء الإيجابي، ويعيشوا من أجل أهداف إنسانية نبيلة.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٧ من مجلة حراء.

[*] كاتب وباحث مصري.

ومن أجل ذلك، لم تتمكن مجموعات التطرف من أن تؤثِّر على هؤلاء الشباب الذين شاركوا في مشاريع "الخدمة"، ولم تستطع أن تورِّطهم في أيِّ عمل من أعمال العنف والإرهاب قط. فهذه المؤسسات استطاعت أن تعلِّم شبابها عدة لغات أجنبية، ورتَّبت لهم رحلات ثقافية إلى بلدان مختلفة، الأمر الذي نمَّى عندهم قابلية معرفة العالم وفهم الآخرين والتفكير المرن والقراءة التحليلية النقدية. فتعزز لديهم نظام المناعة إزاء الأفكار المنحرفة التي يحاول المتطرفون غرسها في عقول الشباب والناشئة، واطلعوا -عبر برامج تربوية من جهة ومشاريع عملية من جهة أخرى- على طريق إيجابي بديل للسير فيه.

ذلك هو الجانب الذي مارسه الأستاذ كولن هو ورفاقه تطبيقيًّا منذ حقبة السبيعينات، وسوف نستعرض الآن بعضًا من المقترحات التي قدمها في مقال له بعنوان: "لكيلا يكون شبابنا فريسة للتنظيمات الإرهابية"[1] نُشر في مجلة بوليتيكو الأمريكية بتاريخ ٨ يونيو ٢٠١٧ بمناسبة الهجمات الإرهابية الدامية التي استهدفت مدينتي لندن ومانشستر، وتبناها تنظيم داعش الذي يطلق على نفسه "الدولة الإسلامية". فمن تلك المقترحات ما يلي:

١- التوصيف الدقيق لهذه التنظيمات إعلاميًّا

فهذه التنظيمات تطلق على نفسها أسماء براقة وتستخدم شعارات لافتة، وتتمسح باسم الإسلام والإسلام منها براء، ومع ذلك يجاريها الإعلام ويستخدم نفس المسميات الإسلامية التي تطلقها على

[1] مواقف في زمن المحنة حوارات إعلامية مع فتح الله كولن، إعداد: صابر المشرفي، نوزاد صواش، دار النيل للطباعة والنشر، ص:٢٩١، ط١، القاهرة ٢٠١٧م.

نفسها، لذلك يرى الأستاذ كولن، وجوب تسميتها التسمية اللائقة بها حتى تتضح حقيقتها للعيان، واقترح لذلك أن يطلق عليها: "شبكات الإجرام التي تجاوزت حدود الإنسانية"، خاصة مع قيامها بعديد من عمليات إرهابية سابقة راح ضحيتها مدنيون أبرياء في مناطق مختلفة من العالم، ومن ثم ينبغي ألاّ ترتبط هذه التنظيمات بأي دين أو قومية أو طائفة، بل ينبغي أن توصف بأنها خارج نطاق الإنسانية.

٢- وقفة مسلمي العالم وقفة جادة

نصح الأستاذ كولن في هذا المقال مسلمي العالم، بضرورة أن يقفوا وقفة جادة إن أرادوا قطع شرايين الحياة لهذه التنظيمات الإرهابية، إلى جانب التدابير الأمنية والاستخباراتية. فهذه التنظيمات تشوه وجه الإسلام الناصع المشرق بالتمسّح في اسمه، وتستخدم الدين أداة لتحقيق أغراضها السياسية، زاعمة أنها ترفع من قدره، ومن ثم كان لزامًا على المسلمين أن ينفروا كافة للحيلولة دون نشر ضلالاتهم، وترويج ادعاءاتهم، والتغرير بناشئة الأمة.

٣- القضاء على أشكال التمييز والتهميش والإقصاء الاجتماعي على مستوى الدول والمجتمعات

لقد نبه الأستاذ كولن على أن أهم عامل تستخدمه هذه التنظيمات في الترويج لأفكارها، هو خداع عقول الشباب وجرّهم إلى شباكها من خلال شعارات إسلامية براقة، ومن ثم يجب حرمانها من هذه الأرضية، ليس بالاعتماد على الحلول الأمنية فحسب، بل يجب أن تتضمن الحلول التي تتصدى لهذه الظاهرة أوجهًا متعددة. وأهم تلك

الأوجه: القضاء على أشكال التمييز والتهميش والإقصاء الاجتماعي على مستوى الدول والمجتمعات، فداعش وأمثالها من التنظيمات الإرهابية، يلعبون على عواطف الشباب الذين يشعرون بالتهميش والإقصاء في مجتمعاتهم، ويضعون أمامهم غايات ذات مظهر نبيل، ويشعرونهم بالانتماء فيحوّلونهم إلى انتحاريين لأيديولوجية شمولية سلطوية. وأوصى في هذا الصدد أن يتم ذلك من خلال تفعيل دور المنظمات الدولية ضد الأنظمة التي تمارس انتهاكات وترتكب مظالم في حق شعوبها كما هو الحاصل في سوريا اليوم، وغيرها من المناطق.

كما شدد على ضرورة أن تنتهج الأنظمة الغربية في سياستها الخارجية نهجًا أكثر أخلاقية ومصداقية وتماسكًا، وأن يقوم المسلمون بمسؤولياتهم في الجهود التي تبذل على نطاق واسع لتحقيق ذلك.

٤- التصدي لهذه التنظيمات في ساحة الفكر

إن هزيمة المتطرفين -الذين يرون العنف مشروعًا- في ساحة الفكر، من أهم الخطوات التي أكد الأستاذ كولن على ضرورة القيام بها للقضاء على هذه الظاهرة.

وقد أشار في مقاله إلى بعض الأخطاء التي يمارسها هؤلاء في فهم الدين وتطبيقه ومنها:

- اجتزاء نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من سياقها، وتأويلها بما يخدم أغراضهم الدموية التي حددوها مسبقًا.

- محاولة النقل الحرفي للأحكام الدينية التي تم تطبيقها في القرون الوسطى -حيث كان الاختلاف الديني يُستخدم أداة

للصراعات السياسية- إلى القرن الواحد والعشرين. بينما الفرصة اليوم متاحة للمسلمين لكي يمارسوا أنشطتهم الدينية في البلدان الديمقراطية بكل حرية.

وأوصى في هذا الصدد، بضرورة العمل على وضع منهاج تربوي متكامل يراعى فيه ما يلي:

أ- تدريب الأجيال على قراءة التراث الديني بنظرة كلية شاملة.

بـ- تعليمهم كيف يفهمون الروايات والنصوص الدينية وفق سياقها.

جـ- تدريبهم على استيعاب روح القرآن الكريم وفلسفة السيرة النبوية، حتى يتمكنوا من مجابهة تأويلات المتطرفين المضلِّلة الخادعة.

د- ضرورة أن يتضمن هذا المنهج الإعلاء من قيمة الإنسان، على أساس أنه آية من آيات الله تعالى.

هـ- ضرورة إسهام الدول الغربية -التي يعيش فيها مسلمون- في حل هذا الإشكال من خلال توسيع الحريات الدينية وضمانها.

٥- استيعاب طاقات الشباب في فضاءات إيجابية

إن الشباب طاقة وقوة هادرة، وإذا لم تستوعب هذه الطاقات في مسارات إيجابية وفضاءات إنسانية مشتركة، فسوف يفرغونها في انحراف فكري أو سلوكي، غلوًّا وتعصبًا أو تفريطًا وانحلالاً وتهاونًا، ومن ثم أوصى الأستاذ كولن بأن نلبي احتياجات شبابنا الاجتماعية من خلال حلول إيجابية، نوفر لهم فيها فضاءات مناسبة تستوعب طاقاتهم بصورة إيجابية بناءة.

ولخبرته هو وجماعته في هذا الميدان، اقترح أشكالاً لهذه الفضاءات منها:

تحفيز الشباب في التطوع على شكل مجموعات، والمشاركة في مشاريع إنسانية هامة يساعدون فيها ضحايا الحروب والكوارث الإنسانية والطبيعية المختلفة.

وأوضح أن هذه المشاريع الإنسانية، ستساعد على تخفيف آلام المتضررين من ناحية، وتشعر المتطوعين الشباب بالأهمية والسعادة من ناحية أخرى، لأنهم أصبحوا جزءًا من مشروع إنساني حيوي.

كما سيعزز العمل المشترك في مشاريع إنسانية كهذه -مع أفراد ينتمون إلى أديان أخرى- فرص الحوار المشترك، ويبعث في القلوب مشاعر الاحترام المتبادل. وبفضل هذا النوع من التواصل والعمل المشترك، سيتمكن شبابنا من استيعاب حقيقة أنهم جزء من الأسرة الإنسانية الكبرى كذلك، وليسوا أعضاء في الفئة العقدية التي ينتمون إليها فحسب. وهكذا، فإن جميع الفعاليات الإيجابية التي تقوم بها مجموعات مشتركة على هذا النحو، سوف تساعد الشباب على أن يؤسسوا لأنفسهم شخصيات سليمة وانتماءات إيجابية.

العقيدة عطاء من الركود إلى الفاعلية[1]

د. العطري بن عزوز[*]

من معاني وأهداف التجديد في الفكر الإسلامي، الرجوع بالدين الإسلامي إلى سابق عهده نصًّا وفهمًا والتزامًا وتبليغًا، من أجل تحقيق مراد الله تعالى ورسوله، وفق نموذج تطبيقي عرفته الأمة الإسلامية، وهو أنموذج الرعيل الأول من الصحابة بشهادة الرسول ﷺ نفسه في قوله: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة" (رواه أبو داود).

الحاجة إلى التجديد

فالأمة الإسلامية دائمًا في أمس الحاجة إلى مجددين ومصلحين في كل زمان ومكان، يجددون أمر الدين والعقيدة، تجديدًا يخص مواطن الانحراف والفساد والضلال، وإحياء منهج خاتم الأنبياء في الدعوة إلى الإيمان بالمفهوم القرآني، ووضع منهجية جديدة تساير العصر الحديث، دون المساس بالثوابت القطعية التي أقرها القرآن

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٥٤ من مجلة حراء.

[*] باحث في الدراسات الإسلامية والإعجاز / الجزائر.

والسنة وإجماع الأمة. ومما ثبت في الأثر عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله رسول الله ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دِينها" (رواه أبو داود).

وما يقوم به المصلح والمجدد فتح الله كولن في هذه الأيام من عطاء متجدد، يدخل في معنى الحديث النبوي؛ حيث تتعرض الأمة الإسلامية لتحديات عويصة من الداخل والخارج. منهجية فتح الله كولن في العمل، هي التركيز على الأفكار الصحيحة والابتعاد عن المسائل الخلافية. وقد تميز خطابه بالبساطة والسهولة، ليكون أنفع وأسرع إلى الأذهان، وأبعد عن الملل والسآمة. ويتناول خطابه جوانب مختلفة، كالجانب الاعتقادي، والجانب الفكري، والجانب الاجتماعي، والجانب التعليمي.. مع شمولية في الخطاب لمختلف فئات المخاطبين رجالاً ونساءً، صغارًا وكبارًا. كما أن خطاب الأستاذ كولن خطاب عملي، فالأستاذ في الوقت الذي يكتب أفكاره، يدعو محبّيه إلى التطبيق الميداني. فقدوته في ذلك، النبي ﷺ الذي يقول: "إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسّرًا" (رواه مسلم).

فكان خطابه يحمل عدة خصائص في الوقت نفسه، حيث يتميز بالانفتاح والتجديد، ويجافي الجمود والانغلاق، ويحافظ على الهوية التي ينتمي إليها، إضافة إلى الانتماء إلى الأمة الإسلامية وما تمتاز به من خصائص تشترك فيها كل الأعراق والأجناس مهما كانت ما دام الإسلام يجمعها.

العقيدة الفاعلة

والخطاب العقدي عند الأستاذ فتح الله كولن، يستمد خصوصيته من الخطاب القرآني والنبوي؛ يخاطب الجماهير بما يفهمون، ويعجل بالتغيير والإصلاح كمن يعجل بالدواء للمريض؛ لإحياء القلوب اليائسة والحائرة، وبعث روح الإيمان الصحيح المولد للطاقة الفاعلة في المجتمع، وتطهير العقيدة مما علق بها من الشرك والأوهام والأباطيل التي شوهتها وجعلت الدين كما لو كان مضادًا للعقل.

فهو يدعو من خلال خطبه في المساجد والنوادي، ومقالاته التي ينشرها في الصحف والمجلات، إلى إصلاح العقائد الإسلامية، وشرح المصطلحات، وحل القضايا، على نمط القرآن والسنة بوضوح، وبمنهجية علمية بعيدة عن الآراء الفلسفية التي تَعب الأوائل في وضعها وأتعبوا الناس في فهمها.

فالمصلح فتح الله كولن، يعتبر أن إصلاح فهم العقيدة هو جوهر كل أنواع الإصلاح. إنه إصلاح فهم المسلمين لعقيدتهم، وربط هذا الفهم بالواقع. وأكثر من ذلك، فهو لا يريد تعريف المسلمين بعقيدتهم فحسب، وإنما يريد أن يسترجع فاعليتها وقوتها الإيجابية، وتأثيرها الاجتماعي. فهو يرسخ العقيدة الإسلامية في النفوس، باعتبار أن الإيمان هو المحرك الفاعل في تكوين الذات وبلورة الشخصية التي تنطلق لتحقيق أهداف العملية التربوية والتعلمية برمتها، ويتحول المسلم إلى عنصر إيجابي في مجتمعه، ينهض في بناء حضارة أمته.

وما يميز الخطابَ العقدي عن غيره، كونه خطابًا يعتمد على الحجة

والبرهان والأدلة النقلية والعقلية، فهو يجمع بين المعرفة العقلية والمعرفة الوجدانية، كما أنه يزيل التعارض بين الوحي والعقل.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن هاجس فتح الله كولن في دراسته قضايا ومسائل العقيدة والتوحيد، كان هاجسًا إصلاحيًّا تغييريًّا عمليًّا، ولم يكن هاجسًا معرفيًّا محضًا مثل معظم الدعاة والمصلحين. وأهم ما تميز به في إصلاحه العقدي، استفتاح خطاباته بالحمد والشكر لله تعالى على نعمة العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، والصلاة والسلام على النبي صاحب الرسالة وأكرم الرسل. وفي معرض حديثه لا يلجأ إلى حشد المصطلحات الكلامية أو الفلسفية التي لا يفهمها الناس، وهذا ما جعل الناس يلتفون من حوله، ويقرؤون مقالاته وكتاباته لما لها من فائدة عامة. ونلاحظ في أسلوبه الاهتمام -بالدرجة الأولى- بإصلاح فهم المسلمين لعقيدتهم، وتنبيه الناس إلى فاعليتها ودورها الفعال في تغيير الإنسان، بأسلوب علمي عملي عميق.

مفتاح القلوب

فالإيمان عنده يتعلق بالكلمة المفتاحية لفتح القلوب فيقول: "إن الكلمة المفتاحية لفتح القلوب هي "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، فكل الخصائص الإيمانية -حسب الإسلام- تتأسس على هاتين الجملتين الوجيزتين اللتين هما تعبير عن حقيقة لها وجهان؛ أحدهما: غاية، والآخر: وسيلة. فالإيمان الذي هو كـ"شجرة طوبى" تنشأ من هذه البذرة، فتغطي -بما تؤتيه من ثمار المعرفة- سماءَ أحاسيسِ الإنسان وشعوره وإدراكه، ثم تتحول العلوم والمعارف كلها عشقًا واشتياقًا وحرصًا بدفق وهمّة باطنيتين وشعورٍ وحسٍ داخليين، ليلف كل ذلك

الإنسانَ من كل جهة، فيحوّله إلى إنسان جديد مرتكز على محور الوجدان.. فتنعكس هذه الحالُ على كل سلوكيات هذا الإنسان العاشق المشتاق. وتَحمل عبادتُه وطاعتُه سماتٍ ترتسم بخطوط هذه العلاقة والرابطة وذلك العشقِ والاشتياق، وتصير مناسباتُه البشرية انعكاساتٍ لهذه اللدنية".. وهكذا يواصل كلامه بأسلوب يمزج فيه حقيقة الإيمان بوجدان الإنسان لإزالة التلبد الذي يغشى الفطرة السليمة".

تلك هي خطة ومنهجية فتح الله كولن في الإصلاح والتغيير، وذلك هو خطابه العقدي المستمد من القرآن والسنة. وكان له صدى في أوساط المجتمع التركي، وساهم مساهمة فعالة في تنويره وإخراجه من أزمته التربوية والفكرية، وما زال صداه يتردد خارج تركيا إلى الآن.

مقررات مادة العقيدة

والسؤال الذي يطرح نفسه على المجتمعات العربية على الخصوص؛ متى ننظر من حولنا نظرة استقرائية فاحصة، ونستفيد من هذه التجارب الناجحة لننتقل من التخلف والحرمان، إلى المجد والحضارة والتقدم؟ ذلك لأن الواقع يشير إلى أن تحصيل علم العقيدة في جامعاتنا، أمسى مطلوبًا للوظيفة لا للعلم. ولو اطلعنا على المقررات الدراسية -وخاصة مقررات العقيدة- نجد أنها أكثر صعوبة من مقررات الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء.. وأمست العقيدة في حس الكثيرين تعني التعقيد بسبب مصطلحاتها الفلسفية، ولم تعد العقيدة تبعث في كثير من الأحيان على الاطمئنان القلبي والاستقرار الفكري والتفاعُل السُّلوكي، بل على الشك والتردُّد الذي عاناه كثير

من الفلاسفة والمتكلِّمين قديمًا، وسجلوا اعترافاتهم بذلك. فمادة العقيدة عبارة عن جدل ونقاش لا يكاد ينتهي، وافتراضات لا يكاد يتصوَّرها عقل، ثم أجوبة واعتراضات، وأجوبة تلك الاعتراضات، واعتراضات تلك الأجوبة وأجوبتها.. وهكذا إلى ما لا نهاية. فإغفال جانب التأسيس العقدي لكثير من الأمور العملية السلوكية، كان سببًا في هذا الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون، المتمثل في إقصاء العقيدة الصحيحة عن كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، حتى صار لديهم استعداد نفسي لتقبل الفلسفة العلمانية.

وهذا الأمر ينذر بانهيار المجتمع والتخلف الحضاري. فما أحوجنا إلى الاقتداء بمنهج فتح الله كولن في الإصلاح التربوي والتعليمي في مدارسنا ومعاهدنا، خصوصًا وقد أثبت نجاحه في واقع الناس، واستطاع أن يؤثر في الفرد والمجتمع، وأن يخرج على يديه نخبة من مجتمع الخدمة، الذين ساهموا في نشر العقيدة الإسلامية تأثيرًا وجدانيًا وسلوكًا عمليًا، بالإضافة إلى نشر العلم والمعرفة في أرجاء العالم.

العنف مسبباته ودوافعه[1]

د. مريم آيت أحمد[*]

لقد عُني علماء النفس الاجتماعي منذ أمد بعيد، بقضية الأسباب الكامنة وراء "العدوان" بين الناس (أو العدوان البين الشخصي Interpersonal Aggression). ويدور الجدل منذ سنين حول دور الوراثة مقارنة بدور البيئة في العدوان، وفيما إذا كان السلوك العدواني لدى البشر يتحدد بيولوجيًّا، أم أنه ينشأ عن التعلم ويتأثر بمؤثرات بيئية. فثمة اتجاه يرى الكائن الآدمي "مسالمًا" في طبيعة تركيبه، كل ما في الأمر أن "البيئة" -بما فيها من "ثقافة" منحرفة- هي التي تنمّي لديه نزعة العدوان.

وثمة اتجاه ثان يرى الكائن الآدمي "صفحة بيضاء" من الممكن أن تحوّلها "التنشئة" إلى "مسالم أو عدواني."

واتجاه ثالث يرى أن "الإحباط" هو السبب في إنماء النزعة "العدوانية"؛ فما دامت حاجات الإنسان لم "تشبع" بشكل يحقق توازنه الداخلي، فإنه مضطر إلى أن يستجيب للظواهر استجابة "عدوانية" ما دامت تقف حائلاً دون الإشباع.

---

(١) نشر هذا المقال في العدد ٤٦ من مجلة حراء.

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

ويواكب هذا الاتجاه، اتجاه لا يقصر الأمر على الإحباط أو عدمه أو درجته وصلة ذلك بالعدوان، بل يجد -أساسًا- أن عجز الإنسان عن إشباع حاجته في التخلص من حالة "الإحباط"، يضطره إلى العدوان بصفته استجابة حتمية للإحباط. على أن أشد الاتجاهات مفارقة، هو الاتجاه الذاهب إلى أن العدوان يمثل حاجة أو دافعًا فطريًّا يرثه الكائن الآدمي بـ"الفعل". وهذا يعني أن الإنسان يعيش في عالم متغير، ويسيطر على سلوكياته من خلال أفعاله ومن خلال تعرفه بمحيطه، وهو قابل بصورة إيجابية للتغيرات المذهلة، بحيث يكتسب الإنسان قوة خارقة تؤهله لممارسة عنف يفوق عنف كل حيوانات الطبيعة والبحار. وتتجلى هذه القدرة بصورة فردية وجماعية عبر التاريخ البشري الذي هو في جانب منه سلسلة جرائم ومحاولات لتفجير الكرة الأرضية وإفناء الإنسان نهائيًّا، كما يكتسب قوة خارقة لإعادة بناء ما دمرته الحرب في الطبيعة والإنسان نفسه. وهكذا يلبث يدور بين ثنائية الخير والشر، الدمار والعمار؛ الشر المتمثل بالجانب الأبرز منه في الحروب الفردية والجماعية، العالمية والإقليمية، السيكولوجية والميتافيزيقية، والخير المتمثل في صناعة كل وسائل البناء.

أما التصور الإسلامي للظاهرة، فإنه من الوضوح بمكان كبير أن الكائن يرث بـ"القوة" مبادئ "الشهوة والعقل" أو "الذات والموضوع" أو "الخير والشر"، وإلى أن عملية "التأجيل" التي يمارسها في بحثه عن اللذة هي التي تترجم "القوة" إلى "فعل" إيجابي هو "المسالمة"، وعدمه (أي عدم التأجيل) هو الذي يترجم "القوة" إلى "فعل" سلبي هو "العدوان".

وبإمكاننا أن نتعرف على هذه الحقيقة إذا أدركنا أن إيذاء الآخرين

هو المظهر الأشد بروزًا لكل سلوك "شهوي". فالممارسات "الشهوية" الفردية مثل الشراهة في الطعام، أو المال، أو الجنس، أو اللهو... إلخ، إنما تعكس آثارها على "الذات" الشخصية دون أن تمتد إلى إيذاء الآخرين. أما الممارسات الشهوية المرتبطة بالآخرين، فإن انعكاسها عليهم يظل أمرًا من الوضوح بمكان كبير. فالقتل، أو التجريح، أو السب، أو الإهانة، بل والحقد على الآخرين بعامة والحسد، تظل أنماطًا "عدوانية" أشد بروزًا من الأنماط الأخرى المتصلة بالبحث عن "التفوق" أو "الاستطلاع" ..إلخ.

جذور العنف

يرى الدارسون أن العنف ظاهرة لها جذور سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية، وهي ترتبط -مثلها مثل أي ظاهرة أخرى- بالعديد من العوامل المتداخلة والمتشابكة مع بعضها البعض. وبدون قراءة صحيحة لهذه العوامل، ستبقى كل المعالجات قاصرة ولا تمثل حلولاً ناجعة لها، ومهما تم من تغطية أمنية مكثفة -على أهميتها- فإنها ستبقى دون تحقيق النتائج المطلوبة للمعالجة، ذلك أن الإجراءات الأمنية تحاول منع العنف المدفوع بالكثير من العوامل. ولما كان العنف سلوكًا، فإنه يحتاج لضمان تواصله واستمراريته، طاقةً تكمن في دوافعه. ومن ثم فإن أي تعامل مع ظاهرة العنف لا يأخذ بعين الاعتبار عوامله الأساسية، سيكون تعاملاً مُجتزَأ لا يؤدي العلاجَ المطلوب، وربما أطال عمر الفيروس الحامل لممانعة المودة وجذره. فلم يكن الإنسان عنيفًا يوم ولدته أمه، بل إن عنف الطبيعة وعسر الحياة والتربية وعنف الآباء، هو الذي يغرز العنف في

خلايا الدماغ حتى حملته صبغياته الوراثية فكاد أن يكون موروثًا. وهنا تظهر أهمية دروس التربية لتعريف النشء بالمبادئ الإنسانية النبيلة التي تحث على الود والتواصل، والعدالة والأخوة، والتفتح على الرأي الآخر، وعدم نصب العداء للمعتقدات الأخرى.. وبذلك نصون المراهقين والشباب، ونحصنهم ضد المفاهيم المتطرفة -التي تزرع الكراهية لكل من يخالفنا الرأي والمعتقد- وبذور الفتنة والقسوة والعنف. ويرى الباحثون في هذا المجال أن أسباب هذه الظاهرة عديدة نلخصها في الأنواع الآتية:

الأسباب التربوية

قد تحدث بعض المشكلات التي تسبب ضررًا نفسيًّا أو ماديًّا على أفراد المجتمع، أو جماعة محددة منه، فيتولد من خلال ذلك شعور بالإحباط، ورغبة في الانتقام عن طريق استخدام العنف. ويعد التفكك الأسري من أبرز تلك المشكلات الاجتماعية، لأن التفكك الأسري يعني انهيار الدور الأساسي للأسرة، الذي من أبرز معالمه التنشئة الاجتماعية السليمة، وتقوية أواصر العلاقات الاجتماعية المهمة. فالأسرة تشكل تلقيح ممانعة ضد أمراض نفسية فتّاكة تتحول بفعل الزمن إلى ممارسات عدوانية، إذ تعد الأسرة النواة الأساسية للمجتمع، والتي في أحضانها ينعم الطفل بالعناية والرعاية والحب والأمان. فهي الوعاء الطبيعي الذي يحتضن الفرد في طفولته وحتى شبابه، بحيث يتم تزويده إما بالعطف والاحترام فينمو نموًّا سليمًا صحيحًا يتميز بالقدرة على التكيف مع محيطه، أو بالقسوة والإحباط أو التدليل الزائد، مما يعرقل نموه الطبيعي ويخلق لديه مشاعر القلق وعدم الطمأنينة.

فالأسرة كالجسر الذي تعبر عليه خصائص الثقافة لأية أمة إلى أفرادها، في حين أن أساليب المعاملة والتنشئة الأسرية هي تلك العربة التي تسير على هذا الجسر، وتنتقل القيم والاتجاهات والمعتقدات للأفراد. وإضافة إلى سوء المعاملة الأسرية اتجاه الأبناء، فإن المشكلات الأسرية كالطلاق والغياب الطويل للأب عن البيت، والمعاناة الاقتصادية للأسرة، لها علاقة في انحرافات الأبناء الفكرية والسلوكية العدوانية.

الأسباب الاقتصادية

تنتشر في بعض دول العالم اليوم، حالة من انعدام العدالة في توزيع الثروات الاقتصادية، فتظهر فئة أو فئات من المجتمع تنهج سياسة الاحتكار، الأمر الذي يولد العديد من المشكلات الاقتصادية المسببة للأعمال العدوانية بقصد تحقيق غايات اقتصادية، وإشباع حاجات مادية ونفسية، فتفشي البطالة، وتدهور القدرة الشرائية لسوء الأوضاع الاقتصادية. وانخفاض مداخيل الدولة، تجعل نفوس الشباب مرتعًا خصبًا لكل الأفكار المغرية، وعرضة لكل إغراء مادي يستعمل مصيدة لهؤلاء لتوريطهم في أعمال العنف بطعم إخراجهم من وضعيتهم الصعبة، التي تتطلب منهم أحيانًا بيع أعضائهم بأثمنة بخسة، أو القبول بدخول سوق الاتجار بهم في مزاد النخاسة العالمي.

الأسباب الاجتماعية والإحباط النفسي

يترتب عن الأسباب الاقتصادية السالفة الذكر أسباب اجتماعية، إذ بتدهور الاقتصاد تتدهور الأوضاع الاجتماعية، وتفكك الأواصر

الأسرية نتيجة استفحال مشكل الأمية والبطالة والفقر والفاقة والتهميش الاجتماعي والمحسوبية والرشوة والفساد الإداري، فيجد الشباب نفسه -في عمر العطاء- يفقد إنسانيته وكرامته، ويحرم من فرص تقديم كفاءاته، ويخنق إبداعه.. فيجد الشباب نفسه في الثلاثين من العمر يعيش مرحلة التقاعد المبكر، لكن من دون شروطه، لا عمل ولا أسرة ولا أطفال ولا استقرار مادي ونفسي.

ومن هنا يتكون الشعور بالتهميش وفقدان الثقة، ويزداد قوة بعد طول انتظار، فتصبح النفوس مهيأة لتقبل أي فكرة تنادي لتغيير الأوضاع -مهما كانت وسائل هذا التغيير- لأن الهدف هو تحطيم الأوضاع التي فرضت عليه العيش في هذه الظروف القاسية وجعلتهم طبقة منبوذة مهمّشة، فتكون الاستجابة تلقائية لدعوة التغيير بالعنف. ومن أهم نظريات علم النفس الاجتماعي، نظرية تفسر السلوك العدواني وتربطه بالإحباط.

ففي حالة اليأس والإحباط من تغيير الواقع، يتعرض الفرد إلى تغيرات سلبية في التفكير والشعور. ففي مجال التفكير، تقل أمام العقل الخيارات والمحاولات والحلول للتغلب على العوائق، أما في جانب الشعور والإحساس، فإن الفرد في حالة اليأس والإحباط، يغلب عليه التشاؤم والشعور بنقص الكفاءة والانهزامية، فينخفض مستوى الروح المعنوية، وينعدم الأمل في المستقبل، وقد يتجه الفرد -بناء على ذلك- إلى التفكير العدواني المنحرف لعلاج المشكلات.

الأسباب الفكرية

تعود الأسباب الفكرية للإرهاب والعنف والتطرف في أغلبها،

إلى معاناة العالم الإسلامي اليوم من انقسامات فكرية حادة بين تيارات مختلفة، فمن تيار علماني يدعو إلى بناء الحياة على أساس مفاهيم حداثية دنيوي وغير مرتبط بالأصول الشرعية ولا بالتقاليد والعادات والموروثات الاجتماعية الأصيلة، إلى تيار متعصب منغلق يعارض المدنية الحديثة وكل ما يتصل بالتقدم الحضاري. ومن الأسباب الفكرية الأخرى، تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وضآلة الاهتمام بالتفكير الناقد والحوار البناء من قبل المربين والمؤسسات التربوية والإعلامية، وسوء الفهم والتفسير الخاطئ لأمور الشرع والدين.. والمشكلة أن الجيل الحالي يفتقد العمق الثقافي بعد أن فشلت المؤسسة الأسرية والتربوية والتعليمية في دورها التوجيهي والترشيدي وأصبح التليفزيون والإنترنت هو الموجه والمربي، فأصبح عند المتلقي استعداد فطري لتقبل كل ما تمليه عليه هذه الوسائل من ألوان الفكر العبثي السطحي التمييعي لمدركاته ومعارفه، أو الفكر الأيديولوجي الموجه لتعبئة وشحن العقول بأفكار متطرفة.

الأسباب السياسية

تقف البواعث السياسية خلف الكثير من العمليات الإرهابية وأعمال العنف التي ترتكب في أنحاء عديدة من بلدان العالم، من بينهما الحصول على حق تقرير المصير لشعب، أو مقاومة الاحتلال، أو تنبيه الرأي العام العالمي إلى مشكلة سياسية أو اجتماعية، أو الاحتجاج على سياسة يتبعها بلد ما، أو الرغبة في إنزال الضرر بمصالح دولة معينة وإرباك وسائل نقله الخارجة، أو الرغبة في إنقاذ حياة بعض المناضلين من الرفاق المعتقلين.

وسائل الإعـلام

تلعـب وسـائل الإعـلام دورًا لا يسـتهان بـه في تكويـن الاتجاهات والأفكار والتطرف، فهي تؤثر بما تقدمه من برامج وأفلام وأخبار عن الأشـخاص والأحـداث. وتنبـع أهمية المؤسسـات الإعلاميـة من أنها أصبحت الصوت المسـموع لدى جميـع أفراد المجتمـع. والأثر الذي تتركه المؤسسات الإعلامية لا يقتصر فقط على ما تبثه خلال ساعات البـث، بـل يتعـدى ذلـك إلـى ممارسـة دور الموجه، حيـث تحاول كل جهـة غـرس قيمها ومفاهيمها وأفكارهـا ونظرياتها في عقول المتلقين، وصـولاً إلـى أهـداف مبرمجـة سـلفًا.. وليـس غريبًـا أن يكـون من بين تلـك الأهـداف، الإضرار ببعض الأنظمة والدول عبر برامج سـافرة أو مستترة تسعى إلى تقويض الأمن والأمان والاستقرار الاجتماعي بها.

وتبـرز مسـاهمة وسـائل الإعـلام في تكويـن الانحرافـات الفكرية عنـد الأفراد والجماعات فـي ما يظهر في التغطيات الإعلامية لبعض الحـوادث الإرهابيـة التي تقوم بها بعـض الجماعات المتطرفة، حيث تقارن وسائل الإعلام بمبالغة مفرطة بين أفراد تلك الجماعات وبقية أفراد المجتمـع، وتصوير الدولة والمجتمـع في "صورة ملائكية" وإنكار أخطـاء أفـراد المجتمـع وتعظيـم أخطاء أفـراد الجماعـات المعتدية، ممـا يحـدث فكـرًا منحرفًا مضادًّا، وفجوة هائلة بيـن الواقـع والمثال، يستغله أصحاب الفكر المنحرف من متطرفين وغيرهم في برنامجهم القائم في الأساس على المقارنة بين مثال خيالي والواقـع الموجود، وهـي مقارنـة تثيـر الإحبـاط واليـأس والاسـتفزاز عند بعـض الأفراد.

وتنمـي بعـض وسـائل الإعلام مشـاعر الكراهيـة والعدوانيـة التي

تولد بدورها أفكارًا تبرر العنف وتكفر الآخر وتحرض على الانتقام، وذلك عندما تستفز بعض تلك الوسائل المشاعر الدينية للأمة بتجاوز الثوابت العقدية، والاستهانة بالأحكام الفقهية الراسخة، أو تزييف وتحريف النصوص الشرعية لغايات معينة، وكذلك استهداف الأشخاص باتهام النوايا والتهكم والسخرية.

ومن جانب آخر، ساعدت شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) كوسيلة إعلامية عالمية، في نشر الأفكار والأيديولوجيات المتطرفة والمنحرفة، من خلال بروز فقه جديد عبر هذه الشبكة وهو ما يسمى فقه الإنترنت، بما يحتويه من فتاوى فردية مشحونة بالانفعال والكراهية والتحريض على العنف.

ويحدونا الأمل باتجاه أن تتبنى المؤسسات الثقافية والإعلامية الوطنية هذه المسألة، وتقود الحملة الإعلامية والتثقيفية لتأكيد خيار الاعتدال والوسطية في الأمة.

براءة الإسلام من العنف والإرهاب[1]

د. إسحاق السعدي[*]

لقد حدث خلط فاضح ولُبس خطير بين مفاهيم الإسلام ومفاهيم الثقافة الغربية وبخاصة في مفهوم "الإرهاب". ولم يكن ذلك نتيجة الصراع الحضاري والفراغ العلمي والفكري في حاضر الأمة الإسلامية فحسب، بل يقف وراء ذلك بعض القوى المعادية للإسلام وثقافته وحضارته وأمجاد أمته وتاريخها المُشرق بالإسهام الحضاري والإنجاز الثقافي المبدع.

لقد أُلصقت عن سبق إصرار بعض المفاهيم الشائنة والمستهجنة التي ترسبت في البيئة الغربية وتجذرت في تاريخها، وباتت رموزًا ومصطلحات للأفعال القبيحة الهمجية والشريرة، ألصقت تلك المفاهيم البغيضة بالإسلام وأسقطت على بعض مفاهيمه -كمفهوم "الجهاد" و"الدعوة"- إمعانًا في تشويه صورة الإسلام، واستنزالُ أمته إلى حلبة صراع مفتعل ومواجهة مدروسة بغية النيل منها، وإحلال ثقافة العولمة في نموذجها المغاير لحقائق الأمة في قيمها الخلقية

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٤٤ من مجلة حراء.

[*] كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية / المملكة العربية السعودية.

ومبادئها الإيمانية ومنطلقاتها وغاياتها، بل المناقض في كثير من الأحوال لأسسها التي قامت عليها، وأهدافها التي تضطلع بها وتسعى لتحقيقها وفقًا لرسالتها في الحياة. إن الموضوع جد طويل، بيد أنني سأركز الحديث هنا عن حقيقتين:

سماحة الإسلام

كون الإسلام دينًا سماويًّا إلهيًّا ربانيًّا، ينبذ العنف والإرهاب، ويأمر بالرفق والرحمة والعدل والإحسان، شأنه في ذلك شأن الأديان السماوية قبل أن يطرأ عليها التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧)، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل:٩٠).

هذه حقيقة نابعة من جوهر الإسلام ومثله العليا، وصفة من صفاته، وسمة لازمة لعقيدته وشريعته وأخلاقه ومبادئه وقيمه وهديه وتعاليمه وآدابه، وهي كذلك حقيقة تاريخية انطلق منها حمَلة الإسلام في شتى مجالات الحياة، وفي علاقاتهم بالآخر أفرادًا وجماعات وأممًا وشعوبًا، بل وحتى مع موجودات الحياة وعناصر البيئة من حيوان ونبات وطير وحيتان وأنهار وبحار وهواء وغابات وأحراش، ومع منارات الأرض ومعالم الطبيعة ومكوناتها، وكانوا منضبطين في التعامل مع ذلك كله بضوابط الإسلام الشرعية والعقلية والمنطقية، بما حقق لها الانسجام مع نواميس الكون وطبائع الأشياء وسنن الفطرة. سواء في فتوحاتهم، أو في تعاملاتهم التجارية مع الشعوب المختلفة، أو حين سياحتهم وتنقلاتهم ورحلاتهم في فجاج الأرض

وأقطارها وأقاليمها القريبة منهم والبعيدة، ونحو ذلك من المظاهر التي صاحبت انتشار الإسلام وظهوره وسيادته.

هذا هو المسار العام لتاريخ الإسلام ونشوء حضارته، والطابع المميز لأمة الإسلام وتاريخها سلمًا وحربًا دعوة وجهادًا. ولم يَندّ عن ذلك إلا حالات شاذة وقليلة لا يتأتى عليها القياس لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا يصحّ أبدًا أن يستدل بها -في عرف المنصفين وذوي الألباب من مختلف الديانات والثقافات- بما يعمد إليه نفر نكرة عن الإسلام وثقافته، من الجهلة والموتورين والمحبطين واليائسين وأصحاب السوابق الإجرامية والأفكار الشاذة المنحرفة الهدّامة، الذين يحسبون على الإسلام وثقافته -من المنظور الغربي- صَلَفًا واعتسافًا، في حين إنهم كانوا دومًا -وسيظلون- أداة بيد القوى المعادية للإسلام في القديم والحديث شعروا بذلك أم لم يشعروا، أدركوا ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر أم لم يدركوا.

وإذا كان الإسلام في حقيقته ينبذ العنف والإرهاب وكل أشكال القسوة والظلم والعدوان، ويحث على الرفق والتسامح ويأمر بالعدل والإحسان -وهذه الحقيقة من المسلّمات المستقرة في عقل كل مسلم ووجدانه- فإن ما يشاع عن الإرهاب وعلاقته بالإسلام وأمته قد ساعد عليه عاملان مهمان:

الأول: كون الإرهاب قد ألصق -ظلمًا وعدوانًا- بالإسلام في الوقت الراهن عبر وسائل الإعلام الغربية المختلفة، وبخاصة تلك الوسائل الموجهة لخدمة الأصوليات الدينية والعنصرية والصهيونية،

ومما زاد الطين بلة صلة تلك الوسائل بأصحاب القرار السياسي، وسعة نفوذها الفكري والسياسي والاقتصادي.

والثاني: ظهور بعض الجماعات المتطرفة وانتهاجها أساليب العنف والعدوان، والبحث عن مرجعية فقهية يستندون إليها ويفسرون بها نصوص الكتاب والسنة، متجاهلين المناهج العلمية التي أصّلها علماء الأمة وما تقتضيه من علم شرعي ومشروعية على مستوى قيادات الأمة الفكرية والسياسية، ومصالحها العليا وظروفها التاريخية وواقعها الثقافي والحضاري. ومما يؤسف له ظهور أنصاف المثقفين والمتعلمين الذين أقحموا أنفسهم في التنظير والتدليل بما يذكي نار الفتنة ويحرج الأمة، حتى بلغ الأمر ببعض الكتاب أن يكتب مقالاً بعنوان "الإسلام دين الإرهاب"، مؤصّلاً لما يعنيه لفظ "الإرهاب" في اللغة العربية الإسلامية، متناسيًا أو متجاهلاً ما يحدثه اتحاد اللفظ مع اختلاف المضامين، ناهيك عن الخلفيات والإيحاءات والتحرشات التي يعاني منها واقع الأمة الإسلامية في صراعها وأزمتها الحضارية في سياق أصبحت المصطلحات جزءًا من ذلك الصراع وتلك الأزمة.

الإرهاب مصطلح غربي

كون الإرهاب ظاهرة غربية في جذورها وتطوّراتها التاريخية، وفي منطلقاتها وأهدافها وغاياتها، وكذلك في وسائلها وأساليبها، وهذا ما تؤكده الدراسات والبحوث العلمية. إن المتأمل في مفهوم الإرهاب كطرح غربي يقف على الآتي:

أولاً: قدم هذا المفهوم كممارسة حدثت وتحدث على مدار

التاريخ الغربي منذ العهود الرومانية وحتى العصر الحديث إلا ما ندر. فقد استخدم حكام الرومان من أمثال (Tiberius 14-37) و(Aligula 37-41) العنفَ ومصادرة الممتلكات والإعدام كوسائل لإخضاع المعارضين لحكمهم. كذلك الجماعات التي نشطت في التاريخ الأوربي وانتهجت القرصنة والإرهاب، مثل جماعة "الفايكنج" التي نشطت ما بين القرن الثامن والحادي عشر للميلاد، وبثت الإرهاب والرعب في مناطق واسعة من أوربا

ثم جاءت الحروب الصليبية التي لم يشهد التاريخ كعدوانيتها، ومع ذلك كانت تلك العدوانية مقبولة في ثقافة الغرب لمدة بلغت من الطول حدًّا لا يسمح لها بالاختفاء على حد تعبير "كارفين رايلي". ثم محاكم التفتيش التي قام بها الأسبان ضد الأقليات الدينية والمسلمين بخاصة كأهم المحطات الرئيسية في تاريخ الثقافة الغربية، ناهيك عمّا أحدثته الحروب الصليبية في بيت المقدس وما حوله من الفظائع التي يندى لها الجبين في تاريخ العالم الغربي الديني.

وعلى نحو من ذلك، مارست الدول الحديثة في الغرب الإرهاب كخطة سياسية للدولة، كدولة "هتلر" النازية في ألمانيا، وحكم "ستالين" في الاتحاد السوفيتي، حيث تمت ممارسة إرهاب الدولة تحت غطاء "أيديولوجي" لتحقيق مآرب سياسية واقتصادية وثقافية.

وعلى مستوى الجماعات والمنظمات، فإن التاريخ الحديث للغرب شهد الكثير من ذلك، مثل جماعة "بادر ماينهوف الألمانية"، ومنظمة "الألوية الحمراء الإيطالية"، و"الجيش الجمهوري الإيرلندي"، وغيرها كثير.

ثانيًا: والأنكى من ذلك أن يرتكز العنف والإرهاب على أصوليات دينية ونصوص مقدسة، يقول "كارفين رايلي": "لقد اكتسبنا القدرة قبل الحروب الصليبية بعهد طويل على تبرير أشد أفعالنا بربرية؛ باسم الله أو باسم الحضارة المسيحية أو باسم العالم الحر، وهي الصورة العلمانية لهذه الحضارة. فالثورة العبرانية حاملة بالفظائع التي أصر "شعب الله المختار" على أنها ترتكب باسم الرب، وقلما نجا المصريون أو القبائل الكافرة من انتقام "الرب الغيور"، وقد ظل المسيحيون على إيمانهم بهذا المنتقم. وفي نهاية القرن الرابع ردد كثير من المسيحيين في "روما" دعوة "أمبروز" للدفاع عن "بلدهم" ضد البرابرة منعدمي الإنسانية الذين لم يكونوا سوى "كلاب" على حد تعبير أسقف آخر".

مما يؤسف له، أن هذه الأصوليات تطفح في العهد الراهن على سطح السياسة الغربية، وتتنامى الأصوليات الأخرى بدعم منها أو تقليدًا لها.

ثالثًا: مما يلاحظ على تاريخ الغرب أن ثقافته ترتكز على محفز حضاري يتمثل في تصور عدو متربص يتأهب بين الحين والآخر للانقضاض عليه ويستهدف منجزاته الحضارية، كي يقوم بنسفها وإرهاب شعوبه وتصفية قادته وزعمائه. وبعمل ماكر لئيم من القوى المعادية للإسلام، استغل الوضع الراهن ولا سيما بعد سقوط الشيوعية وما أحدثه ذلك من فراغ في تلك الجدلية الفكرية التاريخية، فدفع بالإسلام تحت مسمى "الخطر القادم"، وهبَّ المغرضون والناقمون والمأجورون للتنظير لذلك، والتدليل

عليه بما يرتكبه بعض الحمقى والموتورين والمغفلين ممن ينتسب للإسلام، وتورط في انتهاج الإرهاب واستحلاله ضد الآخرين وضد أبناء ملته، وتطورت الأوضاع تحت أنشطة مشبوهة وتحت مسميات مختلفة ومسوغات ملفقة يبرأ منها الإسلام وأمته، حتى كانت قاصمة الظهر (أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١)، وإذا بالمواجهة مع الإسلام تحت مسمى "الحرب على الإرهاب" واقع مفروض لا مفر منه، وإذا بالأمة الإسلامية تُستنزل في ميدان فرض عليها وبمنطق المتنفذ المتحفز للأخذ بالثأر المخدوش في كرامته وكبريائه. وختامًا أودّ التنبيه إلى النقاط الآتية:

١- النظر في المفاهيم والمصطلحات التي توظف في المعترك الحضاري أو يُسوَّق لها سياسيًّا، كمفهوم العنف والإرهاب، بمنهجية تختلف عن ما اعتاده الباحثون المسلمون من تأصيل المفاهيم المثارة في الساحة الفكرية من خلال بحثها في اللغة العربية، ثم في القرآن الكريم، ثم في السنة النبوية، وما تواضع عليه العلماء المسلمون في صدر الإسلام وتاريخه الماضي... فعلى أهمية هذه المنهجية في التأصيل، إلا أنه ينبغي اعتماد المنهجية الملائمة لمثل هذه المفاهيم والمصطلحات، بحيث تعتمد على استقراء تلك المفاهيم في الساحة الفكرية، وفي الأوساط الإعلامية والسياسية، والمؤسسات العلمية الغربية والمنظمات والهيئات الرسمية وغير الرسمية، والغوص في دلالاتها من خلال البيئات التي نشأت وتطورت فيها، ولها خلفياتها الدينية والثقافية والتاريخية في سياق الحضارة الغربية، ثم مقارنة تلك المعاني والمفاهيم والدلالات بما يقابلها في الحضارة

الإسلامية وثقافتها، لئلا يقع المسلمون في شراك اختلاف المفاهيم والمضامين والدلالات.

على ذلك، فإن المتتبع لمعنى الإرهاب -بخاصة في الثقافة الغربية سواء في القديم أو الحديث- يجد أنه يختلف عن معنى الإرهاب الوارد في القرآن الكريم والسنة النبوية والمعاني المعهودة في الثقافة الإسلامية، وأن ما يقابله في الحضارة الإسلامية هو الإجرام المركب من "الفساد في الأرض، والحِرابة، والظلم والعدوان"، وكل هذا يحرمه الإسلام ويجرمه أشد التجريم ويفرض على مرتكبيه عقوبات صارمة.

٢- أهمية الإنصاف والنزاهة والإيجابية في النظر لتاريخ الأمم والشعوب، وعدم التوافر على صفحات دون أخرى سواء السلبية أو الإيجابية. فإن النظرة الشمولية الموضوعية العلمية المنهجية النزيهة جديرة بالإنصاف والتعقل، و"الحكم على الشيء فرع عن تصوره".

الأهم من ذلك، العمل الإيجابي على إبراز القدر المشترك بين الأمم والشعوب في ثقافاتها وآدابها وركائزها الإنسانية النبيلة والسامية، ليتأتى للبشر العيش بسلام وتعاون في ظل نظام عالمي متحد في إطاره الحضاري، متنوع في ثقافاته، يحفظ لكل أمة ذاتيتها المتميزة بعقيدتها وشريعتها وآدابها وأخلاقياتها وتراثها الحضاري الخاص، ويوحد بينها فيما تفرضه حضارة العصر ومنجزاتها التي هي في الحقيقة موروث بشري عام أسهمت فيه الأمم والحضارات وقامت بالإسهام الحضاري للإسلام وأمته -الذي يعترف به المنصفون-أنْ يؤهل المسلمين للفاعلية الحضارية من جديد، ويؤكد على أحقيتهم في الملكية الفكرية، وأنهم في صميم التاريخ الحضاري وفي بنيته الأساس، وليسوا شعوبًا خاملة

عاشت وتعيش على هامش التاريخ والحضارة.

٣- إذا كان هذا المقال قد ركز على حقيقتين مهمتين هما: سماحة الإسلام وبراءته من الإرهاب، والإرهاب مصطلح غربي نشأ في الغرب وتطور فيه، فإن القصد من ذلك إضاءة لما غيبته التيارات المناوئة للإسلام وأمته، وليس القصد وصم الغرب بالإرهاب، إذ جاءت الحضارة الغربية بمعطيات حضارية، وارتكزت على قيم إنسانية أفادت الإنسان ونهضت به، ولها تطبيقاتها الديمقراطية وإيجابياتها المعتبرة في مجال حقوق الإنسان ورعايتها وتحقيق العدالة من خلال إجراءات قانونية وأنظمة مدنية راقية. بيد أن الخلل يكمن في المتأمرين على السلام من أصحاب المصالح الشخصية والمطامع الذاتية التي لا تقنع بالمشروع ولا تعترف بالآخر. ولكن لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، حمى الله الإسلام وحفظ المسلمين ووفقهم لما فيه صلاح أنفسهم وصلاح البشر.

الإعلام ودوره في تصعيد لغة العنف(١)

د. مريم آيت أحمد(*)

كلنا يعرف أن الإعلام سلاح ماض يُستخدَم للإخضاع والهيمنة والترويض. ففي الغرب -مثلاً- تُعتبر وسائل الإعلام والدعاية، عتادًا هائلاً لتطويع المجتمعات وبرمجتها. كما أن الفضائيات العربية تعتبر المصدر الرئيس للأخبار لدى المشاهد العربي، حيث أظهرت إحصائية في هذا الجانب، أن نسبة ٧٣٪ من المشاهدين العرب، يعتمدون على الفضائيات كمصدر للأخبار، وهذه النسبة كبيرة إذا ما قُورنت بمصادر الأخبار الأخرى، كالصحف والمجلات والإذاعة المسموعة.

ولقد أدت وسائل الإعلام وظيفتها الخطيرة بجعل متلقيها أسرى لرسالتها وتعليماتها ورهن إشارتها، وذلك عن طريق برمجة العقل الباطن للمشاهد أو المستمع أو القارئ، باستخدام التكرار الممل لوجهة نظر معينة -إما دعمًا أو تحريضًا- من خلال تزويده بكمّ من البرامج والتعليقات والمقالات والتحليلات... إلى أن تصل إلى استقطاب المتلقي -بشكل أوتوماتيكي- في قضايا مختلفة.

---

(١) نشر هذا المقال في العدد ٤٨ من مجلة حراء.

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

وفي هذا الإطار تخصصت مجموعة من المواقع الإلكترونية، والصحف، والمجلات، والإذاعات والتلفزيونات العربية غير الرسمية -على سبيل المثال- في ترويع الإنسان العربي العادي والمثقف منذ مدة، بأساليب لا تعتمد على منهج الإقناع الحضاري، بل على التخويف وإرهاب المتلقي بطريقة ماكرة؛ بحيث يخضع في النهاية للرسالة الإعلامية، التي تريد تلك الوسائل الإعلامية فرضها وتمريرها وتكريسها بالقوة.

وهذا ما قامت به بعض وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة لقلب الحقائق، بحجة الديموقراطية الإعلامية الغربية، لإجبار المتلقي عن التنازل عن الكثير من قيمه ومفاهيمه النبيلة وتجريده من القيم الأخلاقية الإسلامية.

لقد أصبحت وسائل الإعلام مشحونة بمحتوى عنفي حقيقي؛ فنشرات الأخبار تكرس لأحداث القتل والانفجارات والدمار والصراعات وطقوس المآسي البشرية، ويتفنن الإعلاميون من أجل إحراز السبق في الإثارة عبر التركيز على المشاهد الأكثر هولاً وقدرة على أحداث الصدمة الإدراكية، كما تتسابق الوكالات الإعلامية على التقاط أشد المشاهد فظاعة لأن لها أكبر سوق من حيث الإقبال على بثها. ورغم أننا أمام واقع إنساني حقيقي، إنما المشكلة تكمن في أن هذه المشاهد تعرض مسلوخة عن سياقها التاريخي والسياسي، وتقدم مكثفة وكأنها حقيقة قائمة بذاتها، فلا اهتمام إعلاميًا بتاريخ هذه الأحداث ومسبباتها وأبعادها السياسية الإنسانية مثلما يندر الوقوف عند نتائج بث هذا الغيض من العنف

الحي على نفسية المشاهدين خاصة الأطفال والشباب، حيث لا يمكن تجاهل الآثار السلبية على نفسياتهم والإحساس بالعيش في عالم مليء بالأخطار والتهديدات.

وفي العراق الجريح، فإن المضاعفات السلبية لظاهرة العنف المعروض عبر وسائل الإعلام، هي الأخطر في إفرازاتها السلبية من الناحية النفسية والتربوية والاجتماعية. فالعنف أصبح جزءًا عاديًّا من المشهد الحياتي اليومي يراه الطفل والشاب بعينه ويتابعه عبر وسائل الإعلام بشكل يومي وتفصيلي... وكل هذا يخلق عقدًا، ويولد أزمات نفسية وظواهر غير مقبولة قد تظهر نتائجها -الآن أو في المستقبل- ما يهدد الأوضاع النفسية لهذا الجيل والأجيال القادمة.

هذه الصور تنقل معاناة ممثلة في صور العنف الممارس على المواطن المتلقي بما يشاهده من واقع التحديات الكبرى، والتي جعلته ينقسم في مواقفه إلى فئتين:

الفئة الأولى تأثرت بالعنف الترفيهي وتتبنى موقف تطبيع العلاقات مع هذه المشاهد لكثرة عرضها، فلم تعد تثير فيها الأحاسيس القومية، ولا تحفز فيها مشاعر مناصرة القضايا المصيرية المشتركة. فتكرار عرض صور العنف، يولد لديها شعورًا باللامبالاة تجاه قضاياه، نتاجًا لتعوّد عينها على مشاهدة صور العنف. وقد لا تحرك بداخلها مشاعر الغضب تجاه ما يحدث من ظلم وقهر، ولا تدفعها إلى التآزر والتعاضد مع إخوانها المسلمين، أو تحفز وتقوي الشعور والانتماء القومي، وتدفع لِلمّ الشمل وتوحيد

الجهود والتآخي والتعاضد، وتكون النتيجة تبنيها لتيار الإعلام السطحي الذي أصبح يشكل ظاهرة عنف خطيرة من نوع آخر بدأت تظهر نتائجه على عدة مستويات؛ منها عدم الاستقرار في العلاقات الاجتماعية على مستوى الأفراد والجماعات ومؤسسات المجتمع، واستهتار بالقيم والأخلاق والمبادئ، وإشاعة الفساد الأخلاقي والترويج للمخدرات والفساد عبر الخطوط الساخنة، مما يؤدي إلى الاضطراب الاجتماعي، وغرس مفاهيم الانهزامية والاتكالية والهوان.

الفئة الثانية تأثرت بالعنف الإخباري وتتبنى موقف رفع راية المقاومة والنضال، من أجل إعادة الكرامة والعزة والشرف والحق لأبناء الأمة، لأن من أهم الآثار التي تتركها مشاهدة العنف على هذه الفئة ما يلي:

١- رفْع حدة الآثار النفسية والعاطفية عند الفرد، مما قد يقود إلى ارتكاب سلوك عنيف تجاه الآخرين. ويتوقف سلوك الفرد العنيف (أي استجابته للمشاهدة) على مدى إحساسه وشعوره بالإحباط والضيق والتوتر.

٢- تعزيز السلوك القائم بالفعل داخل الفرد، حيث تعمل المشاهدة للعنف أو قراءتها، على تعزيز وتدعيم السلوك الموجود أصلاً عند المشاهد، وذلك لأن الشخص العنيف -بسبب دوافع العنف داخله- يرى السلوك العنيف المتلفز على أنه تجربة حقيقية.

٣- التعلم والتقاليد، إذ من المعروف أن إحدى طرق تعلم

الإنسان هو التقليد والمحاكاة، من هنا تأتي خطورة عرض أفلام الكائن الأسطوري رمز العنف، لأن البعض قد يقلد على غرارها.

على أن ما هو أخطر من هذا وذاك، هو ما يقوم به الإعلام -بطريق مباشرة وغير مباشرة- من إيقاظ النزعات والرواسب الدينية والمذهبية والقومية والإثنية، ولا سيما أنه يخاطب كتلاً هائلة من البشر أسهم هو نفسه في تنميطها وتسطيح ثقافتها، وتحويلها إلى قوة استهلاك للسلع المادية والسلع الثقافية سواء بسواء.

والإعلام الغربي الكثيف، لا يترك للمستمع أو المشاهد على وجه الخصوص، فرصة للتأمل والتفكير والتحليل، بل يشده في كل لحظة من لحظات الاستماع أو المشاهدة، إلى تبني الموقف الذي تضمره الرسالة الإعلامية، ويتسلح لأداء هذه الرسالة بسلاح النقل المباشر والحي للوقائع والأحداث، على نحو يوحي بالحياد والبراءة والتزام الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة.

ومن هذا المنطلق، ينبغي على كل المؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية والحكومية، الدعوة إلى تأسيس ميثاق إعلامي أخضر مقابل الإعلام الأصفر؛ ينبذ العنف، ويمنع بث كل المواد الإعلامية التي تحض وتحث على العنف بكل أشكاله (العنف الترفيهي أو الإخباري)، وتدعو إلى التسامح واحترام حقوق الإنسان والاعتدال والوسطية.

وإننا اليوم، نعتقد وبشكل عميق، أهمية أن يسعى الإعلام الحر لإنتاج صيغ احتضان ورعاية كل المبادرات والتوجهات التي تعتبر معتدلة وسطية، وحفظ وصيانة وتفعيل المكتسبات الحضارية، وتوفير

البيئة الملائمة لمواجهة التحديات والصعوبات التي تستهدف عمق مقوماتنا وحاضر ومستقبل حضارتنا. ويحدونا الأمل باتجاه أن تتبنى المؤسسات الثقافية والإعلامية الوطنية هذه المسألة، وتقود الحملة الإعلامية والتثقيفية لتأكيد خيار الاعتدال والوسطية في الوطن والأمة.

نظرات في مفهوم القوة في الإسلام[1]

أ.د. الشاهد البوشيخي[*]

لو تأملنا أركان الدين الخمسة بكاملها، وتأملنا سواها من الفرائض والنوافل، لوجدناها تصبّ كلها في اتجاه واحد هو "تكوين المؤمن القوي".

١- الشهادة في تكوين المؤمن القوي

"لا إله إلا الله"، تحرّر العبد مما سوى الله مطلقًا، فلا يبقى لغير الله عليه سلطان.. تحرر العبد لله ﷻ، واتباعه لرسول الله ﷺ.. تجعله كذلك مؤتمًّا بشرع لا يلتفت إلا لمن اتبع ذلك الشرع.. وتجعل الأمة جميعًا تدور حول أمر واحد وحيد هو حبل الله ﷻ وهو شرع في عباده وبين عباده.

٢- إقامة الصلاة في تكوين المؤمن القوي

إقامة الصلاة، تجعل العبد أقوى ما يكون في التغلب على جميع الصعوبات؛ لينظم حياته، ويأتمر بأمر الله تعالى، ويستطيع أن يمسك نفسه بقوة لتذْكر ربها في الصلاة على أي حال كان أمرها قبل الصلاة:

---

[1] نشر هذا المقال في العدد٥٢ من مجلة حراء.

[*] رئيس مركز البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤). إن الذي يستطيع بتكبيرة الإحرام أن ينتقل من عالم كانت نفسه منشغلة فيه بتجارة أو غير ذلك، إلى الحضور بين يدي الله ﷻ استحضارًا تامًّا، واتجه إليه وأعرض عما سواه. نعم، إن الذي يستطيع هذا الانتقال السريع؛ من ذكر غير الله إلى ذكر الله فقط، فهو قوي حقًّا، وإنه قوي جدًّا في قدرته على الاستحضار، وقوي على التمكن من نفسه لتوجيهها الوجهة التي ينبغي أن تتّجه إليها.

إن الإسلام يهتم بالمعاني الخارجية، ولكن المعاني الداخلية عنده أهمُّ؛ وإنما تعتبر المعاني الخارجية وسائل ومساعدات لتحصيل تلك المعاني الداخلية.. فالوضوء وشكل الصلاة، إنما يهدف أساسًا لذكر الله ﷻ، أما إذا توضأ العبد وقام وركع وسجد وفعل أفعال الصلاة بصفة عامة، ولكنه كان داخلها غائبًا غيْر حاضر، فما صلّى.

٣- الصيام في تكوين المؤمن القوي

الصيام أيضًا، يحرر العبد من الشهوات، ولا يبقى لها سلطان عليه، حتى الحلال، لأننا في الصيام لا نصوم عن الحرام، إن هذا الأمر نصوم عنه في غير رمضان، لكن في رمضان نتدرب على ترك الحلال، ونتدرّب على الصيام عن الحلال، وعن الشهوات الحلال؛ لترقية عزم المؤمن، وترقية شخصيته، وتقوية إرادته.. لأن كثيرًا من الخلْق يعبدون أهواءهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(الجاثية:٢٣). ما أكثر من يعبد هواه، هؤلاء أكثرية مَن على الأرض فأكثرهم عبَدة الشهوات.

٤- الزكاة في تكوين المؤمن القوي

الزكاة أيضًا، تقوّي المؤمن بدَفعه لأن يصبح معطيًا لا آخذًا، لأن "اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى"، واليد العليا هي المنفقة. المفروض أن تكون أكياس القمح والطحين تذهب من العالم الإسلامي إلى الخارج لا العكس، لا أن تأتي أكياسهم وألبستهم ومصبَّراتُهم ليُعينوا بها عجزة العالم الإسلامي وبلاد المسلمين، هذا وضع منكوس معكوس.

الإسلام جاء لينتج الأقوياء في المال أيضًا، ولينتج الذين تتم لهم أركان الإسلام بأن يصيروا مزكّين منفقين بعضًا مما آتاهم الله ﷻ معطين له إلى الذين يحتاجونه حتى ولو كانوا كفارًا: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾(البقرة:٢٧٢).

٥- الحج في تكوين المؤمن القوي

والحج أيضًا، وجه آخر لتكوين القوي.. وجه آخر تجتمع فيه تلك الوجوه السابقة؛ فيه تحرير العبد لله حتى في الشكل حين يُحرِم ويلبس خرقة يلف نفسه فيها كأنها كفن، فيتحرر من الشهوات ويتحرر لله ﷻ، ويظل يدور حول بيت الله رمزًا لشرع الله وحبْله معتصمًا به ﷻ، وينفق في سبيل ذلك كما يفعل في "الزكاة"، ويضحي ويترك الشهوات كما يفعل في "الصيام"، ويتم الاستحضار الكامل والعبودية الكاملة كما هو أمر "الصلاة". كل ذلك يتجمع في صورة جماعية لجمع كلمة المسلمين على أقصى حد وعلى أكبر صورة.

فالإسلام إذن بصفة عامة، إنما جاء ليكوّن الأقوياء وليخرج الأقوياء.. لأن الإسلام أمانة ثقيلة. فكيف تعطى الأمانة لضعيف؟! أرأيتم لو أُعْطِيت أو وُجدت في يد ضعيف، هل يستطيع حملها حين تعطى له؟ لا يحمل الأمانة ولا يُبلغ الرسالة، إلا القوي. القوة إذن، هدف لهذا الدين من جميع شرائعه، والسبب يرتبط برسالة هذه الأمة التي هي الشهادة على الناس، وهي إظهار دين الله في الأرض كلها.

لقد التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ولمّا يتجاوز الإسلام الجزيرة العربية بعدُ، ولكنه هو رسولٌ إلى الناس كافة. فمَن الذي يحمل الأمانة مِن بعده؟ مَن الذي يبلّغ دين الله لمَن لم يبْلغه؟ لا بد أن يكون الحمَلة أقوياء. ولذلك استطاع الجيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم ومَن بعدهم مِن التابعين، تبليغ هذا الدين إلى العالم. ولكن بماذا؟ بوجود القوة بالله. إن صفة "القوة بالله" كانت عالية فيهم، فاستطاعوا بها أن يبلّغوا دين الله إلى أقاصي المعمورة. وما انحسر وما ضعف ذلك المدّ الإسلامي، إلا حين ضعف معنى القوة الشرعية في المسلمين.

حين ضعف معنى "القوة"، بدأنا نرى تراجع الفتوحات الإسلامية وقد كانت تدق أبواب باريس من الجهة الغربية، وأبواب فيينا من الجهة الشرقية، حين ظهرت هاته المعاني على يد محمد الفاتح وجيشه، حيث ظهرت معاني القوة الشرعية.

كيف تُكتسب هذه "القوة" إذن؟ سمعنا فيما سمعنا وفيما يتلى علينا اليوم، أن موسى عليه السلام قال له الله عز وجل حين أُعطيت له الألواح: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾(الأعراف:١٤٥)، وقال ليحيى عليه السلام: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(مريم:١٢)، وقال لأتباع موسى عليه السلام ضاربًا لنا المثل بهم

إذ هم المؤمنون في وقتهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣).

لا سبيل للمسلمين إلى القوة إلا إذا أخذوا ما آتاهم الله ﷻ بقوة، وتمسكوا به بقوة: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾(الأعراف:١٧٠)، ليس "يُمْسِكون" بالكتاب، بل "يُمَسِّكُون"؛ أيْ يأخذون الكتاب بقوّة، أيْ أن يتعاملوا مع كل الأوامر على أنها واجبة التنفيذ، وكل النواهي على أنها واجبة الاجتناب.

والسر هو موقع الإنسان من الله، موقع المسلم من ربه ﷻ أنه عبدٌ لله، فالعبد يجب أن يطيع سيده دون مناقشة: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٥). هذا ربّي إذا صدر منه الأمر يسبق كل أمر.. هذا هو الشرع، وبهذا جاء الدين، وبهذا يمكن اكتساب القوة من جديد، إذ الجميع في هذا الدين محفوظ موقعُه بشرع الله.

فالإمام طاعته واجبة بشرع الله ما دام مطيعًا لشرع الله، إنما الطاعة في المعروف، والطاعة واجبة؛ لأن الجميع لا يطيع غير الله، الكل يطيع شرع الله.

إن أخْذ الكتاب بقوّة، يقتضي أن يُتعامل معه على أنه أكبر من أي شيء آخر؛ يأتي إلى الإنسان يخاطبه، يطلب منه أن يفعل وأن لا يفعل، فيجب الإقبال على الكتاب والسنة، وعلى العلم بالشرع لمعرفة ما يطلب الله ﷻ منّا، فنفعل ذلك ونُربّي عليه أهلنا وأولادنا، وندعو إلى ذلك.

والشرع، ضَمِن جميع الحقوق من خلال أمره بجميع الواجبات،

وهناك علاقة تلازمية بين الواجبات والحقوق. فلا يوجد حق إلا وهو واجب في عنق آخر؛ حقّ الزوجة هو واجب في عنق الزوج، وحق الزوج على الزوجة واجب في عنق الزوجة، وحق الآباء على البنين واجب في حق البنين، وحق البنين على الآباء واجب في حق الآباء، وحق الرئيس على المرؤوسين واجب في حق المرؤوسين، وحق المرؤوسين على الرئيس واجب في حق الرئيس.. وهكذا.

فهذا التلازم يعني أن الإسلام ضمن جميع حقوق الناس كيفما كانت نوعيتهم، ضمنها من خلال ضمانة الواجبات، لأنه فرض واجبات. والمطلوب أداء الواجب قبل المطالبة بالحق. قال رسول الله ﷺ: "إنه ستكون بعدي أَثَرة" أيْ أنه سيأتي زمان يُؤثر الناس فيه أنفسهم على الآخرين، أي يحبّون أن يستبدّوا بالمسائل كلها، ويؤدُّوها لأنفسهم. و"الأَثَرة" هي ضدّ "الإيثار"؛ فـ"الإيثار" يعني أن الإنسان يُؤثر الآخرين على نفسه رغم أنه محتاج، أما "الأثرة" هي أخذ الشيء للنفس دون الآخرين، قال ﷺ: "إنها ستكون بعدي أَثَرة وأمور تنكرونها". قالوا: "يا رسول الله، كيف تأمر مَن أدرك منا ذلك؟"، قال: "تؤدُّون الحقّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم" (رواه مسلم).

إذن، ها هنا ترتيب "الحق" و"الواجب"؛ فالواجب أولاً؛ فكل صاحب حرفة واجبه أن يؤدي الواجب أولاً، ثم يطلب الحق الذي يترتب على ذلك الواجب.

فـ"أخْذ الكتاب بقوة"، هو السبب في كل خير يأتي بعده. لماذا؟ لأنه يأخذ الكتاب بقوة. فعندما يأخذ الإنسان الدين بقوّة، يصير غير عادي، ويصير إنسانًا نُفخت فيه روح القرآن، ونفخت فيه روح

الإيمان.. ذلك الكتاب أعطى أثَره فيه فأصبح غير عادي، إذ ذاك يدفعه الشرع دفعًا إلى أن يطلب جميع أنواع القوة الأخرى.

ما هي أنواع القوة الأخرى وعناصرها؟

ففي زماننا هذا، وفي غير زماننا، كانت القوة تتمثل في "العلم" بالله، والعلم بالشرع، والعلم بالدعوة.. وتتمثل في "المال"، لأن المال أساس دعمها. ثم في قوة "الإعلام"، لأن الإعلام هو التبليغ للدعوة بالحِكمة، ودفْع النفوس لحملها بقوة كل هذه العناصر للقوة يجب طلبها، وهي مضمنة في الأركان الخمسة للإنسان -لو يتدبر- ومتضمنة في جميع شرع الله، لأنها هي من مظاهر القوة أيضًا، ويدفع إليها دفعًا أخذ الكتاب بقوة، أي أخذ الدين بقوة.

١- قوة العلم وأولوياته

يقوم الإنسان بطلب العلم، فينهض ليتعلّم العلم ويعلّمه غيره. وطلب العلم رأسه "العلم الشرعي" وهو العلم الحقيقي: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾(البقرة:١٢٠).

ولكن حتى العلم التسخيري الذي به يسخر الكون هو -كذلك- مطلوب في الشريعة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ﴾(الحج:٦٥). كيف نسخر الهواء، كيف نسخر الضوء والمعادن والبحار والجو، وكل شيء من حولنا هو كذلك له نظام موجود في هذا الكون.

فالعلم أساس القوة منذ عهْد آدم عليه السلام، به تمّت خلافته.. وكذلك

ترونه في أول شرط جعله الله مؤهلاً لطالوت ليكون ملِكًا، قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾(البقرة:٢٤٧).

القوة المادية تأتي بعد القوة المعنوية وبعد قوة العلم.. فالعلم يجب أن يَطلبه المسلمون أولاً، وهو واجب عليهم. وأول ما نزل من كتاب ربّنا هو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾(العلق:١). هذه الأمّة يجب أن تُصدّر العلماء لا أن تستوردهم، ويجب أن تكون هي الأولى في تسخير الكون لا أن تكون هي نفسها مسخَّرة ضمن بقيّة الكائنات لغيرها.. نعم، لا بد أن نطلب العلم بجميع معاني العلم وبجيمع أشكاله على هذا الترتيب؛ العلم الشرعي أولاً، والعلم الكوني ثانيًا، علم تسخير الكون.

٢- قوة المال

كذلك المال مرتبط بأمر الزكاة، لأن المال قِوام الأعمال؛ "نعْم المال الصالح للعبد الصالح"، به تتم أمور كثيرة. بالمال استطاع الآن المفسدون في الكرة الأرضية أن يقودوا العالم بسهولة.

ولنتأمل قول الله ﷻ عن بني إسرائيل المفسدين في الأرض: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١١٢). هذا الاستثناء معناه؛ أن هاته الذلة تزول بحبل من الله وحبل من الناس.. وهم كانوا تحت ذمة المسلمين وفي ذمتهم، كانت الجزية مضروبة عليهم حسب الشرع: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾(التوبة:٢٩)، والصَّغار هو الذُّل والهوان،

وإعطاؤهم الجزية هو نفسه ذُلّ وهوان. فكيف يزول هذا الذل؟ يكون زواله بحبل من الله وحبل من الناس.

وكيف نفهم "حبل الله" الذي سبق حبل الناس: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾؛ مشيئة الناس تابعة لمشيئة الله ﷻ، نحن انسلخنا من حقيقة الإسلام، ومن وضع الأمة الإسلامية التي كانت خيْر أمة أُخرجت للناس. والأمة الإسلامية الآن رقع، مجزَّؤون ممزّقون.. مفهوم الأمة لا وجود له في الواقع.

هذا حبل الله للمفسدين اليوم، وسهْل قطْعه، وسَهْل انقطاعه والله ﷻ يقطعه عنهم. وبسببه يُقطع عنهم حبل الناس، ولكن متى؟ إذا رجع المسلمون وتابوا، وإذا رجعوا إلى الوضع الطبيعي الذي هو التحلّي بالقوّة التي أمرهم الله ﷻ بها، وهي أخذ الكتاب بقوة. فإذا أخذوا الكتاب بقوّة فإن الله ﷻ يقطع حبله عن المفسدين في الأرض، ويقطع بالتبع حبل غيرهم من الناس عنهم كذلك.

والإيمان الحقيقي الذي حدد القرآن الكريم مصطلحاته فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾(الحجرات:١٥)، أي عندهم اليقين، ثم: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(الحجرات:١٥)؛ فجاهدوا بأموالهم، وجاهدوا بأنفسهم، وليس في سبيل دنيا أو مصلحة أو جاه، بل في سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله، وإظهار دين الله.

هذه بعض معاني "قوة المال"؛ يعني أن طلب المال هو طلب للقوة، لأن المال قوام الأعمال. إذن يجب أن نكون كاسبين للمال

على أقصى ما يكون وجوه الكسب، ونسخّر ذلك لإعلاء كلمة الله ﷻ لا لغير ذلك.

٣- قوة الإعلام بين الواقع والمطلوب

إن الإعلام قوّة من أكبر القوى، لأنها تتّجه إلى تكوين عقول الناس وأفكارهم واعتقاداتهم وأذواقهم، بل تتجه إلى غسل أدمغتهم. أما إعلام المسلمين -في الحقيقة- فهو موجَّه لتوعية الناس ولجعلهم يعرفون الحقيقة ولنشر دين الله.. رسالة الإعلام في الإسلام هي إبلاغ وتبليغ الدين على حقيقته، وتبليغ حقائق الواقع كما هي، ليَعرف الناسُ ويتَبيّنوا الصواب من الخطأ والطيّب من الخبيث. فهذا -كذلك- يجب أن يطلب فيه المسلمون القوّة، وأن يكونوا أقوياء فيه، وأن ينافسوا فيه إلى أقصى حدود المنافسة. وهكذا "المال"، وهكذا "العلم"، وهكذا "الإعلام"، ومثل ذلك يقال عن معنى الأمّة المشار إليها سابقًا.

إن المسلمين الآن لا بد أن يشعروا من جديد بمعنى الأمّة الإسلامية، مرّ الوقت الذي نقول فيه هذا سوداني، وذاك تركي، وذاك تونسي.. بل نحن مسلمون وكفى. فأساس العلاقات والارتباطات، وأساس كل شيء، هو "الإسلام"، ولا شيء غيره. فنحن أبناء الإسلام، واللهُ ربُّنا، وأوْلى عباد الله بالله من شكر، كل معنى رفع إلى جانب الإسلام هو مضاهاة، وهو شيء آخر يخشى منه على المسلمين في إيمانهم. إن الرسول ﷺ حينما نادى على الأنصار -وكان الأوْسيّون والخزرجيّون على شفا التطاحن والتقاتل- الخزرج، قال لهم ﷺ: "ما بالُ دعوى جاهلية"، قالوا: "يا رسول الله كسَعَ رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار"، فقال: "دَعوها فإنها منْتنة" (رواه البخاري).

خلاصة القول

لا بد أن يعرف المسلمون دينهم الحق، ولا بد أن يعرفوا دين الله، فهذه عناصر كبرى للقوة يطلبها الأفراد، وتطلبها الجماعات، وتطلبها الأمة جمعاء.

حين نقول "الأمة"، نقول ذلك على معنى حديث رسول الله ﷺ "مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه مسلم). كيف يتداعى سائر الجسد بالسهر والحمى إذا لم يكن له إحساس مشترك يحُس بعضهم ببعض؟ وكيف يدعو بعضه بعضًا؟

إن أمة المسلمين ذات واحدة، وأمة واحدة، وجسَد واحد.. إذا أُصيب جزء منها فالكل عليه الدفاع.. هذا هو الأصل، وهذه هي الحقيقة، وهذا هو الدين.. فالقوة هذا سببها ليؤخذ الكتاب بقوة: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾(البقرة:٦٣).

هذه عناصرها الكبرى، يجب أن تطلب ويدفع فيها إلى أقصى الحدود، وذلك لأن الله ﷻ في الأمر النهائي الأخير، أعطى توجيهًا عامًّا بأمره؛ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾(الأنفال:٦٠)؛ فالقوة هنا نكرة تفيد العموم، وجاء قبلها حرف "من" التي تعني جزء، ومعناه: القوة أنواع كثيرة جدًّا، ولكن كل ما يصلح أن يكون فيه قوة مما أحلّ الله يجب أن يُعدّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾(الأنفال:٦٠).

فمن أراد أن يكون قويًّا فليُكثر صلته بالقويّ وهو الله ﷻ، منه تُستمدّ القوة ومن كتابه، وأخذ كتابه بقوّة يكسب القوّة.. فلنأت البيوت من أبوابها، ولنُقبل على الله وعلى شرعه، ولنتب توبة نصوحًا، ولنعزم عزمة صادقة على الرجوع إلى الله ﷻ، نطلب منه القوة لأنه ضامن القوة.

والذي يجعل القوة الشرعية شيئًا آخر هي "الأمانة": ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(القصص:٢٦). كلّنا في وظائفنا وأعمالنا مستأجرون، فكل واحد منا عليه أن يكون في عمله قويًّا وأمينًا أيضًا. و"الأمانة" ليس من السهل أن تكتسب، لأن مردها خوف الله ﷻ وتقواه.. فالذي لا يعرف الله حق المعرفة، قد يظهر لك أمينًا في بعض المجالات، ولكن في مجالات أخرى يفتقد إليها؛ بينما المؤمن متّصل دائمًا بالحيّ القيوم ﷻ، وهذه الصفة موجودة ما دام الإيمان موجودًا، وكما قال رسول الله ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له"(رواه أحمد).

الخوف من الإسلام رؤية علاجية[1]

أ.د. عبد الله بن بيه[*]

ينبغي بادئ ذي بدء أن نؤكد أننا لسنا هنا في مقام محاكمة أو سياق مرافعة قانونية ولا حتى حقوقية حول ما يمسى بـ"الإسلامفوبيا"، لأننا إطفائيون يبحثون عن وسائل السلام والعافية للمجتمعات المسلمة والإنسانية العالمية. فذكر أسباب الظاهرة، لا يعني أننا نحاكم أناسًا آخرين قانونيًّا وأخلاقيًّا، إنما نبحث عن المقاربة الإيجابية التي تعيد الثقة بين المسلمين وغيرهم، والتي تجلي الصورة الحقيقية والصحيحة للإسلام.

ومع ذلك فإننا لا ندعي الوصاية على مواطني الدول الأخرى فيما يلجأون إليه من الوسائل القانونية المتاحة لهم، للتصدي لخطاب العنف والكراهية ولنيل حقوقهم، فلكل سياق خصوصيته، ولكل مجتمع تنزيلاته الملائمة لأطر نظامه العام.

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٨ من مجلة حراء. هذا المقال جزء من الكلمة التأطيرية لمنتدى تعزيز السلم ٢٠١٧ المعنونة بـ"السلم العالمي والخوف من الإسلام".

[*] رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة ومؤسسة الموطأ في "أبو ظبي". تم اختياره من قبل جامعة جورج تاون كواحد من أكثر ٥٠ شخصية إسلامية تأثيرًا في العالم للأعوام ٢٠٠٩-٢٠١٦م / موريتانيا.

إن بحثنا ليس بحثا تقليديًّا، وإنما هو تشخيص لتلمس العلاج لهذه الظاهرة من خلال رصد تمظهراتها وسبر عواملها. فما هي هذه التمظهرات؟ وما هي هذه العوامل والأسباب؟

التمظهرات

التمظهرات لا تخطئها العين، ولا يحتاج إبرازها إلى كبير عناء، فهي معروفة ليس فقط من خلال ما يكشفه الإعلام، بل بحسب الباحث أن يجدها بارزة وجلية على أعلى مستويات التصريحات الرسمية العالمية.

فتمظهرات الظاهرة تتمثَّل في نمو خطابات الكراهية، والتمييز التي بدأت تغزو المشهد العمومي في المجتمعات الغربية من أطرافه، من خلال تنامي حركات كانت إلى وقت قريب هامشية، كأحزاب اليمين المتطرف والأحزاب النازية الجديدة، والتي تبني خطابها الإيديولوجي على فرض التناقض بينها وبين الغير. مع الإشارة إلى أن الكراهية لم تعد خصيصة غربية، بل إن مناطق في العالم الشرقي أصيبت بلوثة الكراهية للإسلام والعنصرية ضد المسلمين من طرف بعض البوذيين وغيرهم.

لا شك أن هذه الأفكار قديمة بالجنس في الخطاب التقليدي للحركات الوطنية أو الشعوبية، ولكنها جديدة بالنوع في تشكلاتها الراهنة، حيث إن عنصر الجدة ومظهر الأزمة، هو تمكُّن الخطابات الإقصائية ذات النبرة العالية والتعابير الساخطة، من جذب قطاعات واسعة من الجمهور في دول كبرى لها إمكاناتها ومكانتها في العالم؛

فأصبحت هذه الخطابات تسهم في صناعة السياسات الكبرى في هذه الدول، فيما يتعلق بالهجرة وبتحديد الموقف من الأقليات المسلمة، بل وحتى في توجيه السياسة الخارجية أحيانًا.

على أن هذا المشهد المتفاقم، لا يمكن أن ينسينا المواقف الحكيمة لحكومات غربية ولأحزاب لها وزنها وثقلها، ولغالبية هيئات المجتمع المدني التي تصدَّت لخطاب العنف والكراهية ضد المسلمين بالمبادرات القانونية وحملات التوعية والتضامن.

ما هي الأسباب والعوامل؟

إن من شأن الظواهر البشرية، أنها ترجع إلى شبكة عوامل متعددة متداخلة ومتضامنة، وهذه العوامل منها ما هو موضوعي، ومنها ما هو ذاتي، ومنها الحقيقي، ومنها الوهمي. وهذا التعدد هو ما يجعل البحث في الظاهرة متشعبًا، ويلزم الباحث حين يعالج الظاهرة أن يسبُر شبكة الأسباب، ويفحص قوة تأثيرها، ليخلص إلى انتقاء العامل المهيمن الذي ينبغي أن يُخص بمعظم المعالجة.

وقد أحصى الدارسون عدة عوامل، لكل واحد منها نصيب في تشكيل بناء الظاهرة وتكوين الإشكالية المؤسسة لمفهوم الإسلاموفوميا.

فمن الباحثين من أناط المشكل بأبعاده النفسية التي يوحي بها استعمال كلمة "رهاب" (Phobia) بما تحمله من دلالات وجدانية. ومنهم من أبرز العوامل الاقتصادية مشدِّدًا على سياق الكساد الذي تمر به الاقتصادات العالمية، ودور المنافسة الأجنبية في سوق العمل

في تأزيم وضع البطالة وتدني مستويات الأجور. ويفضّل آخرون الحفر والكشف عن الجذور التاريخية للظاهرة، من خلال إبراز دور الذاكرة في صناعة التصورات النمطية السلبية، التي ما تزال موجودة في الذهنيات والوعي العمومي، وتؤطر البنية الاستباقية للبحث لدى بعض المستشرقين والباحثين.

باعتبار هذا الفكر من رواسب مرحلة تاريخية خلت، حيث نشأ في سياقات تاريخية تتعلق بالحروب الصليبية وحروب استعادة شبه الجزيرة الإيبرية، أو في سياق بسط أوروبا نفوذها الاستعماري على العوالم الأخرى وتهيؤها لاحتلال شمال أفريقيا.. ولنذكر خطاب "أرنست رينان" الذي ألقاه في "كوليج دي فرانس" في ٢٣ فبراير ١٨٦٢، حيث قال: "في هذا الوقت المناسب، إن الشرط الأساسي لتمكين الحضارة الأوروبية من الإنشاء، هو تدمير كل ما له علاقة بالسامية الحقة بتدمير سلطة الإسلام الثيوقراطية؛ لأن الإسلام لا يستطيع أن يعتبر إلا كدين رسمي، وعندما يختزل إلى وضع دين فردي فإنه سينقرض. هذه الحرب الدائمة التي لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أولاد إسماعيل بؤسًا، أو يرغمه الإرهاب على أن ينتبذ في الصحراء مكانًا قصيًا.. إن الإسلام هو التعصب، إن الإسلام هو احتقار العلم، هو القضاء على المجتمع المدني، إنه سذاجة الفكر السامي المرعبة، إنه يضيّق الفكر الإنساني ويغلقه دون كل فكرة دقيقة، ودون كل عاطفة لطيفة، ودون كل بحث عقلاني".

إنه تصريح لا يحتاج إلى تفسير، وإن كل تعقيب من شأنه إضعاف النص كما يقول المستشرق الفرنسي المنصف "فنسان مونتاي".

ولكـن الإنصـاف يقتضي أن نؤكد أن هذا الخطاب كان يمثل فقط أفكار بعض النخبة في تلك الحقبة ولا يمكن أن نعممه. فالكثير من المستشرقين والباحثين المنصفين عارضوا هذا التناقض بين الإسلام والغـرب، ومـن أكثرهم إنصافًا المستشـرق "توماس أرنولد" في كتابه "دعوة الإسلام"؛ فكما أن الإرهاب لا يمثل رأي المسلمين أجمعين، فكذلك خطاب الكراهية لا يمثل رأي الغرب أجمعه.

بدون أن ننفي العوامل الأخرى، نقول إن العامل المسيطر والسبب المهيمـن هـو العلاقة المزعومة بين الإسـلام والإرهـاب، وبما أن البعد التاريخـي الـذي يختزل الذاكرة التاريخية فـي البعد الصدامي، ويحاول البعـض أن يؤسـس عليـه حتميـة الصـدام الحضاري، قـد أصبح -رغم فعاليته- يتوارى وراء العامل المسيطر وهو مسألة الإرهاب، حيث انضاف خلال العقود الأخيرة إلى السخيمة التاريخية ركام حوادث تحولت إلى أحـداث مدويـة، افتـات فيها أفراد على الغالبية العظمى من المسـلمين، فصـدَّق كهـانُ صـدام الحضـارة ظنهـم، وتحولـت الكهانـة إلـى كارثـة.

ومـن المفارقات، أن المسـلمين في الإرهـاب ضحايا من جهتين، فإن أكثر ضحايا الإرهاب -من جهة- هم المسـلمون أنفسُـهم، ومن جهة أخرى يظل المسـلمون هم المتهمين الدائمين في جميـع قضايا الإرهاب. تلك التهمة الناشئة عن جهل بالإسلام وتحريف للمفاهيم.

تحدث "فرنسيس فوكوياما" عن الأيديولوجيات المجنونة، وعن الديانـات المجنونـة، وخلـص إلـى أنـه كمـا ماتـت الأيديولوجيـات المجنونـة سـتموت الأديـان المجنونـة كذلـك. وإذا اتفقنـا معـه فـي إمكانية أن تكون هناك أيديولوجيات مجنونة، فإننا لا نسلم له بوجود

ديانات مجنونة، لكن ينبغي أن نقر أن صناعة التدين -التي هي صناعة بشرية- أحالت الدين -هو في أصله طاقة تصنع السلام- إلى طاقة تصنع منها القنابل المميتة المبيدة للبشرية المهلكة للحرث والنسل، حين جعلت الدين وقودًا لنزاعات في أصلها دنيوية وسياسية، وجعلته يتفاعل كيميائيًا مع تاريخ متخيل معسكر، وهذا ما يعني أن صناعة التدين إذا لم نحسن إتقانها، ولم ندرك أبعادها، فإنها يمكن أن تنفرط، وتتحول من رحمة إلى عذاب.

وقد عانت المجتمعات المسلمة من صناع هذا النوع من التدين من أهل الثقافة المأزومة الذين حكموا بالجزئي على الكلي، وتجاهلوا الواقع وعاشوا في القواقع، فقدموا فتاوى تتضمن فروعًا بلا قواعد، وجزئيات بل مقاصد، تجانب المصالح وتجلب المفاسد، فخلقوا فوضى فكرية سرعان ما استحالت دماء مسفوكة رغم عصمتها، وأعراضًا منتهكة رغم حرمتها، وعمدوا إلى مجموعة من المفاهيم -كالجهاد، وكالولاء والبراء، وكتقسيم الدار، وكالجزية وأهل الذمة- فانحرفوا بها عن سياقاتها اللغوية والشرعية والتاريخية، وخرجوا بها عن مقاصدها، ونسفوا كل شروط النظر الفقهي فيها، ولبَّسوا على المُغرَّر بهم مضامينها، وقفزوا على كل عناصر منهجية التعامل مع المفاهيم والنصوص الشرعية.

أما في المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة، فقد طفت على السطح ظاهرة الخوف من الإسلام، أو على الأصح التخويف من الإسلام، اعتمادًا على أحداث سيئة، أو اعتمادًا على الواقع المستشري في الكثير من المجتمعات المسلمة تنمّط صورة الإسلام

والمسلمين، خاصة بعد تمكن الجماعات المتطرفة والمأزومة، من استقطاب شباب ولدوا في الغرب ونشأوا فيه، وإقحامهم في أتون الحروب التدميرية في منطقة الشرق الأوسط وغيرها، وإقدامهم على ارتكاب أعمال إجرامية في البلدان التي ينتمون إليها، سواء كانوا أصليين في تلك البلاد، أو من الأجيال الثالثة والرابعة من المهاجرين الذين هاجروا إليها.

تنميط صورة الإسلام والمسلمين

وتنميط صورة الإسلام والمسلمين مرده في تصورنا إلى مجموعة من العناصر منها:

أ- التصورات الزائفة عن الإسلام النابعة من الجهل به، والقاعدة تقول "من جهل شيئًا عاداه". فمن يعادي الإسلام، ينطلق من نفس المفاهيم التي تنطلق منها الفئة المتطرفة كالجهاد، والولاء والبراء.. وهذا التصور الزائف، مؤسس على مفاهيم اجتثت من سياقاتها اللغوية والشرعية والتاريخية، وبتنزيلها المنحرف أحدثت أذى وإضرارًا بالإسلام والمسلمين قبل غيرهم، وقبل الديانات الأخرى، وما تفجير المساجد والمعابد إلا دليل على ذلك. وهذا هو سبب الأسباب، وأس الأساس، الفكر المشوه، والثقافة المألوسة المأزومة. ولا يعدو الأمر أن يكون فهمًا خاطئًا وتصورًا منحرفًا لأفراد ومجموعات لا تمثل السواد الأعظم، ولا الرأي المعتمد.

بـ- فكرة صدام الحضارات وصراع الأديان، واعتبار قيم الحياة الاجتماعية الإسلامية غير قابلة للتواؤم والتعايش مع غير المسلمين: وينظّر لها مفكرون وخبراء إستراتيجيون، وفاعلون سياسيون،

ومؤسسات إعلامية وفنانون.. وهي قاعدة "صدام الحضارات" التي أعلنها "هانتغتون"، والتي ألحّ فيها على أن الصدام قائم منذ قرون وأنه لن ينحسر. وبذلك اكتملت الصورة التي دشنها "فوكوياما" بنهاية التاريخ وأعلن فيها انتصار الحضارة الغربية.

إن الإيحاء بحتمية الصدام نتيجة تنوع الحضارات، إنما هو دليل على فشل كل حضارة في أن تدرك أهمية الاعتراف بحق التنوع، وهو الحق الذي سنبني عليه رؤيتنا في العلاج، باعتباره أساسًا للحوار ووسيلة للتعارف.

جـ- سلبية بعض المجموعات المسلمة في المجتمعات ذات الأغلبية غير المسلمة، وتخوفها من الاندماج في المجتمعات المحتضنة لها، إما كرد فعل على واقع التمييز والكراهية، وإما لاعتبارات ترجع إلى فهم ضبابي لمسألة الولاء للدين والوطن الأم دون إدراك، لأن الولاءات لم تعد دينية، بل صارت ولاءات مركبة ومعقدة تتحكم فيها عوامل متداخلة لا تنفصل عن بعضها، وينظر إليها باعتبارها دوائر ومراتب بإمكانها أن تتواصل وتتفاعل بدلاً من أن تتصادم وتتقاتل.

إن المرعب في هذا الواقع، سواء تعلق بالتطرف الديني والمذهبي العقائدي، أو تعلق بظاهرة الخوف من الإسلام أنه يواكب فترة زمنية تمتلك فيها البشرية أسلحة دمار شامل في إطار نظام عالمي قائم على توازن الرعب مع غياب الضمانات الكافية لعدم استعمالها،

وخروج بعضها عن مراقبة الدول وسلطتها.

وقد كنا من عهد قريب نسعى إلى إطفاء حرائق جسد المجتمعات المسلمة، لكن يبدو أننا في حاجة إلى العمل الشاق على إطفاء حرائق جسد العالم وخفض حرارته التي يزيد منها التنازع على السيادة في بعض المناطق، أو على الثروات الطبيعية والمياه، والمطالب الانفصالية، والجريمة المنظمة، والمجاعات، والهجرات الجماعية غير المقننة، دون أن ننسى مخاطر التلوث البيئي على المستوى العالمي، والحديث عن الهويات الدينية والمذهبية والعرقية التي انتفخت، وعن ذاكرة السوء التاريخية التي استيقظت تجر موكبًا من المتعصبين والأيديولوجيات المتحاربة في الشرق والغرب، في عالم معولم تشيع فيه الأفكار والثقافات المختلفة، وتروج فيه المبادلات الاقتصادية والابتكارات التكنولوجية، ومن المفارقات أن وسائل التواصل والمواصلات زادت الهوّة اتساعًا بين البشر بدلاً من أن تقرب العقول والأفكار. وكل ذلك يقدم أسئلة ويستدعي بحثًا عن الأجوبة.

هل يجوز للأديان أن تكون طرفًا في هذه الصراعات، تحش نيرانها حينًا، وتكون أداة فيها حينًا، وتخوف من بعضها البعض، أم ينبغي أن تجعل من نفسها المخلص المنقذ للإنسان والأوطان، فتكون عامل بناء لا هدم، عامل وقاية لا عدوى؟ هل من الضروري أن يبرز كل عصر "إسلاموفوبيا" خاصة به؟ هل من الضروري أن تنطبق على الواقع مقولة هيجل: "إن كل ما نتعلمه من درس التاريخ، أنه لا أحد تعلم من هذا التاريخ"، أم إنه ينبغي أن نتعلم من هذا التاريخ حتى يستقر السلم العالمي؟ أليس من الواجب تفعيل مقولة "هانس

كيونج": لا سلام بين الأمم ما لم يكن هناك سلام بين الأديان؟

مواجهة ظاهرة الخوف من الإسلام

تترتب رؤيتنا العلاجية على طبيعة المعالجة الآنفة، وعلى ما جلّيناه من هيمنة العامل المتعلق بالإشكال الحضاري والديني، والذي يستبطن في عمقه سؤال الاختلاف والعلاقة مع الآخر، فيكون العلاج من جنس المضادات الحيوية التي ترتكز على مقاربات، منها مبادئ العلاقة الإنسانية في الإسلام. ومن عناصر الرواية الصحيحة للإسلام أن نعلم:

• أن الإسلام يعتبر البشر جميعًا إخوة، فيسدّ الباب أمام الحروب الكثيرة التي عرفها التاريخ الإنساني بسبب الاختلاف العرقي. والإسلام يعترف للبشر بحقهم في الاختلاف: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾(هود:١١٨).

• اعترف الإسلام للآخرين بحقهم في ممارسة دينهم، فسدّ الباب أمام الحروب الدينية التي كاد التاريخ البشري أن يكون مجرد سجل لها.

• اعتبر الإسلام الحوار والإقناع الوسيلة المثلى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥).

• اعتبر الإسلام أصل العلاقة مع الآخرين المسالمة التي تقدم على بساط البرّ والقسط والإقساط.

إننا نؤمن أن الاختلاف من نتائجه التعددية الدينية، ونؤمن أن التعددية الدينية في كل الأوطان اليوم صارت واقعًا عالميًّا، والقبول بهذه التعددية من خلال تنزيل مقصد التعارف وتفعيل المشترك،

هـو أمر تشـهد له نصوص الدين الإسـلامي. فإننـا نزعم أنه لم يعرف التاريخ دينًا ولا أمة قبلت بالتعددية الدينية واحتوتها كالدين الإسلامي والأمة المنتسبة إليه، ولقد كانت "صحيفة المدينة" التي تأسس عليها إعـلان مراكـش لحقوق الأقليات الدينية في العالم الإسـلامي، إطارًا ناظمًـا لترسـيخ ثقافة قبـول الاختلاف والتعددية الدينيـة والعرقية في المجتمـع الواحـد. كتـاب يصـرح بالتعددية الاختياريـة، ويبني العقد على أساسـها متجاوزًا ما يمكن أن تسـببه من عوائق، بتقديم مصالـح التضامن والتعاون في شكل حقوق وواجبات.

وكان مـن أهـم ملامـح حقـوق الإنسـان فـي الصحيفـة الاعتراف بالتعدديـة، وإقـرار حريـة العقيـدة بإقـرار أهـل كل معتقـد علـى مـا يعتقدونه، وأسسـت لقاعدة المسـاواة في الحقـوق والواجبات ضمن بنيـة المجتمـع المدنـي، حين نصت على مكونات الأنسـاق البشـرية والقبليـة والمسـاواة بينهـا ضمـن الإطـار الـذي تسـتقيم بـه سـيرورة المجتمـع؛ بحيث كل جزء منها مسـاو للأجزاء الأخرى ومكافئ لها فـي مـا يقبـل التكافؤ، لا مكان فيهـا لمنطق التابـع والمتبوع.. وبينت واجبـات كل جـزء تجـاه مكوناتـه أولاً، وثانيًـا تجـاه باقـي المكونات المشكلة لعموم المجتمـع ضمن نسق العدل والمصلحة سلمًا وحربًا، ثـم ثالثًـا تجـاه المكونات المحيطة به، اسـتيعابًا مـن الصحيفة للتعدد الدينـي والعرقـي والقبلـي ضمن سـياقين مرتبطين هما: سـياق العدل كأدنى حد مطلوب، وسياق البر الذي هو أعلى المراتب المطلوبة في التعامل مـع الإنسـان، والذي يقتضي مـع مقام العدل ألا يكون هناك حديث عن أقلية وسط وطن، وإنما الحديث عن أمة واحدة.

الوصايا العشر لتفريق المسلمين باسم الإسلام[1]

أ.د. الشريف حاتم العوني[*]

من الناس من يصطنع الأصدقاءَ، ومنهم من يصطنع الخصومَ والأعداء.. ومن الناس من يسعى لتوحيد الصف، ومنهم من يسعى لتفريقه. ومن الناس من يتَّسع خندقُه لكل من لم يكن عدوًّا له، ومنهم من يضيق خندقُه إلا على من كان مطابقًا له في آرائه وتصوراته. ومنهم من ينظر إلى كل من لم يكن ضدَّه على أنه معه، ومنهم من ينظر إلى كل من لم يكن معه أنه بمجرّد ذلك قد اصطفَّ مع عدوه.

إن صناعة الأعداء وتفريق الجماعات والتخندق ضدَّ الآخرين، واصطناعَ الصفوفِ المتضادّة والاصطفافَ فيها؛ له وصفته السهلة والتي لا تحتاج ذكاءً ولا علمًا، ولا خططًا طويلة الأمد ولا أفكارًا عميقة. عليك فقط بواحد من المواقف التالية:

أولاً: اجعل كل من خالفك في اجتهادك خصمًا، ولا تَنْسَ اتّهامَه في دينه بالبدعة أو النفاق (والنفاق أولى) وفي أمانته بالخيانة والعمالة (والعمالة أحرى).

---

[1] نشر هذا المقال في العدد ٦٥ من مجلة حراء.

[*] كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى/ المملكة العربية السعودية.

ثانيًا: اجعل غالبَ اجتهاداتك الظنيّةِ مسائلَ مقطوعًا بها، وابحث في التراث عن دعاوى الإجماع عليها؛ إذ كيف تهاجم مخالفك بترجيحات ظنية وأنت الذي يتشدق بكلمة الإمام الشافعي: "قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول مخالفي خطأ يحتمل الصواب"، فلا بد من ادعاء شذوذ المخالف ومن ادعاء مخالفته للإجماع، ولا بد من زعم مناقضة قوله الأدلةَ القطعية.

ثالثًا: عليك أن تتوجَّس خيفةً من كل نقد؛ فالنقد بريدُ الزَّندقة، لأن نقدك هو كشف لعورتك أمام العدو، ولا يكشف عورة الأتقياء أمام الأعداء إلا الزنادقة المنافقون.

رابعًا: لا تعترف بالخطأ، بل اجعل الخطأ صوابًا؛ لأن اعترافك بالخطأ فَتٌّ في عضد الأخيار وتَخَنْدُقٌ مع الأشرار.

خامسًا: ارفض كل جديد وتجديد؛ لأن التجديد لا يقوم إلا على أساسِ اعترافٍ بوجود الخطأ أو بوجود النقص، والاعتراف بالخطأ خطرٌ كبير على مسيرة الصحوة المباركة كما سبق، بل يجب أن ترفض التطوير أيضًا؛ لأن قبول التطوير قبولٌ ضمني بوجود نقص، وهذا ينافي كمال منهج أهل السنة والجماعة الذي نحن عليه بكل حذافيره، فحذار من الانزلاق في وهم التطوير الخطير على المعتقد؛ فهو فسادُ الدين والدنيا.

لكن لا بأس من تطوير يقوم على تبادل الأدوار، وتغيير مكيفات الهواء، وتكييف الغرف غير المكيفة، وافتتاح موقعٍ في النت.. فهذا ونحوه هو التطور المسموح به. وتَنبّهْ مِن أن يجعل المتلوّنون هذا

التطوير وسيلة لتطوير الاعتراف بالخطأ والإقرار بالنقص، فإن لزم الأمر فَقُمْ بسدّ هذه الذريعة السلولية -نسبة لعبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين- وهي هذا التطوير الخبيث.

سادسًا: سيتَّهمك المنافقون باعتقاد العصمة والتنزُّه عن الخطأ؛ لأنك ترفض النقد والاعتراف بالخطأ، فلا تلتفت لذلك، فإن عصمة منهجك مستمدٌّ من عصمة الكتاب والسنة ومن عصمة منهج السلف الصالح، وأنت الوريث الشرعي الوحيد لذلك المنهج المعصوم، فهجومك على منتقديك ليس ادِّعاءً لعصمتك في الحقيقة وإن لزم منه ذلك، لكنه هجومٌ منطلقٌ من عصمة الوحي الذي قد تَمثَّله السلفُ وكنتَ أنت امتدادَهم.

سابعًا: احذر من دعاة التوسط والاعتدال؛ فهم لا يفهمون من التوسُّط والاعتدال إلا تخطيئك، وإلا التوسط بين الحق والباطل، والاعتدالَ مع الأعداء، بتمييع المبادئ وتضييعِ العقائد؛ فالذي يتوسط بينك وبين خصمك ما هو إلا كالذي توسّط بين أبي جهل وأبي طالب، ما زاده توسّطه إلا بعدًا عن الحق الذي أنت عليه؛ لأنك أنت هو الحق، والحق معك حيث دُرت دار الحق معك.

وأما ذاك الذي يعدل مع المخالفين، فهو يعطيهم حقًّا لا يستحقونه؛ فالعدالة لا تكون مشروعةً إذا شُرعت سيوفُ الحق، ونادى على المبتدعة منادي الجهاد: "الله أكبر"! فالظلم حينئذ سيكون هو قمة العدالة: فَكَفِّرْ وزَنْدِقْ وفَسِّقْ، وتَفاصَحْ بالشَّتْم والفُحش والافتراء.. فالمؤمن يُستحَبُّ له في بعض المواطن -مثل هذا الموطن- أن يكون

فَحّاشًا لَعّانًا بصّاقًا، بل ربما وجب ذلك عليه، فأنت تقوم مقامَ حسان بن ثابت: "اهْجُهم وروح القدس معك"!

ثامنًا: أثبت ولاءك للعلماء الذين يقومون بدور الحارس لآرائك، فأنت لا تدافع عنهم؛ لأنهم على رأيك وموافقون لاجتهادك، بل لأن رأيك واجتهادك لا يجوز أن يُوصَف أصلاً بأنه رأيٌ واجتهاد، فهو حُكْمُ الله ودين الله. ولا يُلبِّس شياطينُ الإنس والجن عليك بأن دفاعك عن هؤلاء العلماء ما هو إلا دفاع عن نفسك؛ فهذا غير صحيح، فالحق ومنهج السلف لا يقبل التهاونَ بقبول النقد والتخطيء.

تاسعًا: من خالفك جاهل أو متجاهل: هذه هي تعويذة الصباح والمساء.

وأما تسبيحاتُ أدبار الصلوات: فـ"سبحان" من خَلَقَنا على الهدى وخلق غيرنا على الضلالة، و"الحمد الله" على حِفْظِ طائفتنا فهم أمانٌ لأهل الأرض، و"الله أكبر" ما أعظم فِكْرَنا الذي احتكر الحق والحقيقة فلا يعرف العلمُ غيرَ مدرستنا، ولا يمرُّ الحق بغير دروبنا، ولا يمكن أن يجتمع علماؤنا على ضلالة.

وأما "الاستغفار" فأكثر من الاستغفار للإمام مالك بن أنس، كيف احتج بإجماع أهل المدينة (الذي يُنسب إليه)؟! أين هو عن عمل علمائنا الذين لا يجتمعون على ضلالة؟! ولو أن الإمام مالكًا فعل ذلك، لما وجد من يأخذ عليه هذا الاحتجاج، كما أُخذ عليه احتجاجه بعمل أهل المدينة.

عاشرًا: من انتقد شيئًا من هذه المواقف السابقة، فلا تتردّد طرفةَ

عينٍ في أن تجعله عدوًّا لك، ولا تبخل عليه بالشتائم وبالاتهام في الدين بالتبديع والتفسيق، وطالبه مع ذلك كلِّه بأن يتسامح معك كما تسامح مع الكفار وأهل البدع. فما هذا التناقض الذي يمارسه هؤلاء المتلوّنون.. فهم يتسامحون مع الكفار والمبتدعة بالمطالبة بعدم ظلمهم، ولا يتسامحون معنا بمطالبتنا بالعدل معهم.. وينطقون بنقد أخطائنا وبيان ظلمنا، مع أن أخطاء أهل البدع أقبح وظلمهم أشد.. فلماذا لا يتسامحون مع نقدنا لهم.. لماذا لا يتسامحون مع وصفنا لهم بالحق، و"باسم أهل السنة والجماعة" بأوصاف التمييع والتضييع والجهل والفسق والنفاق.

هذه مواقف عشرة، كل واحد منها كافٍ وافٍ في اصطناع العداوات، وخندقة الجماعات، واختلاق المعارك الوهمية؛ فهم يلعبون بالشطرنج، لكنهم نقلوه من رُقعةِ اللعب إلى رُقعةِ الأُمّةِ! فهم مَنْ رَسَم الرقعة التي على أساسها تكون العداوات، وهم من يَصُفُّون من شاؤوا في صفِّ العدو أو في صف الصديق، وهم من يختلقون المعارك، وهم من يخوض هذه المعارك الوهمية.

فليت هؤلاء حين أباحوا لأنفسهم أن يرسموا رُقعةَ عداواتِ الأمة، وقبل أن يَصفُّوا من يعدُّونه عدوًّا أمام الصف الذي وقفوا معه، ليتهم أباحوا رقعة الشطرنج أيضًا.

لكيلا يكون شبابنا فريسة للتنظيمات الإرهابية[1]

الأستاذ فتح الله كولن

تبنّى تنظيم داعش الذي يطلق على نفسه (الدولة الإسلامية) الهجمات الإرهابية الدامية الأخيرة التي استهدفت مدينتي لندن ومانشستر، ومهما يكن المسمى الذي يطلقه هذا التنظيم على نفسه فالاسم الوحيد الذي يليق به هو "شبكة الإجرام التي تجاوزت حدود الإنسانية"، خاصة مع قيامه بعديد من عمليات إرهابية سابقة راح ضحيتها مدنيون أبرياء في مناطق مختلفة من العالم.

إن قطع شرايين الحياة لهذه الكارثة الإجرامية المسماة "داعش" يستوجب وقفة جادة من مسلمي العالم إلى جانب التدابير الأمنية والاستخباراتية ليَحُولوا دون حدوث مثل تلك العمليات في المستقبل. فهذا التنظيم الذي تَشكَّل في العراق من بقايا تنظيم القاعدة سوَّق لأكاذيبه التي يروّجها إلى جانب المجازر الدامية التي يرتكبها؛ فقد شوه وجه الإسلام الناصع المشرق بالتمسّح في اسمه، واستخدم الدين أداة لتحقيق أغراضه السياسية، زاعما أنه يرفع من قدره، وحاول أن يموّه على الضلال والانحراف الذي سقط فيه

---

[1] نشر هذا المقال ٨ يونيو ٢٠١٧ في مجلة بوليتكو.

بملابس دعائية وشعارات يرددها وأعلام يرفعها، ولكن كل ذلك لم يكن كافيا لإخفاء الخيانات التي يرتكبونها ضد الإسلام وروحه.

إن أهم عامل يستخدمه هذا التنظيم في الترويج لأفكاره هو خداع عقول الشباب وجرّهم إلى شباكه من خلال زعم إنشاء دولة إسلامية. وإن حرمان التنظيم من هذه الأرضية غاية ينبغي أن يساندها ويتحلق حولها جميعُ المسلمين في العالم. غير أن الإشكال معقد ومتعدد الأبعاد بحيث لا يمكن حله بالتدخل العسكري فحسب، فداعش وأمثالها من التنظيمات الإرهابية يلعبون على عواطف الشباب الذين يشعرون بالتهميش والإقصاء في مجتمعاتهم؛ يضعون أمامهم غايات ذات مظهر نبيل، ويشعرونهم بالانتماء فيحوّلونهم إلى انتحاريين لأيديولوجية شمولية سلطوية. ومن ثم بات من الضروري أن يتضمن الحل المعالِج لهذا الإشكال ذي الأبعاد الدينية والسياسية والسيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية أوجهًا متعددة.

إن قطع شرايين الحياة للكارثة الإجرامية المسماة "داعش" يستوجب وقفة جادة من مسلمي العالم إلى جانب التدابير الأمنية والاستخباراتية.

وأهم تلك الأوجه القضاء على أشكال التمييز والتهميش والإقصاء الاجتماعي على مستوى الدول والمجتمعات، وذلك من خلال المنظمات الدولية التي ينبغي أن تقوم بتدخلات فعالة ضد الأنظمة التي تمارس انتهاكات وترتكب مظالم في حق شعوبها كما هو الحاصل في سوريا اليوم. وكذلك على الأنظمة الغربية أن تنهج في سياستها الخارجية نهجا أكثر أخلاقية ومصداقية وتماسكا.

وبإمكان المسلمين أن يكونوا جزءا من هذه الجهود ذات النطاق الواسع، بل ينبغي أن يكونوا، إذ يقع عليهم مسؤوليات خاصة في هذا الموضوع بالتحديد.

نعم، علينا -نحن المسلمين- واجب مهم إزاء فيروس العنف والإرهاب، علينا أن نقوّي نظام المناعة لدى مجتمعاتنا وخصوصا شبابَنا. علينا أن نسأل أنفسنا كيف تحولت مجتمعاتنا إلى أرضية خصبة للإرهابيين في استقطاب عناصر لهم؟ -بالتأكيد هناك عوامل خارجية ينبغي معالجتها لحل هذا الإشكال- لكن ينبغي أن نبدأ من مراجعة أنفسنا -نحن المسلمين- أولا، فمحاسبة النفس واجب ديني. كما أن هناك أدوارا ينبغي أن يقوم بها الآباء والأمهات والمدرسون والدعاة والعلماء وقادة الرأي كذلك.

إن إحدى الخطوات المهمة التي ينبغي القيام بها في هذا المجال هو هزيمة المتطرفين -الذين يرون العنف مشروعًا- في ساحة الفكر. فالتكتيك المشترك أو الخطيئة المشتركة التي تمارسها تنظيمات أنصار العنف هي اجتزاء نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من سياقها، وتأويلها بما يخدم أغراضهم الدموية التي حددوها مسبقا. إن المنظّرين لتلك التنظيمات يجتزئون مقطعا من سيرة النبي الأعظم (ص) أو الصحب الكرام (رض) فيستخدمونه وسيلة لتبرير وشرعنة جريمة قد خططوا لها من قبل.

ولكي يتم التصدي لمثل هذا العمل الخطير، ينبغي العمل على وضع منهاج تربوي يدرّب الأجيال على قراءة التراث الديني بنظرة كلية شاملة، ويعلمهم كيف يفهمون الروايات والنصوص الدينية وفق

سياقها. ينبغي أن نعلِّم شبابنا كيف استطاع الرسول الكريم ﷺ أن يحوِّل قومه من مجتمع بدائي همجي إلى مجتمع متشبّع بالقيم الأخلاقية التي يتشارك فيها جميع الأديان الإبراهيمية. ينبغي أن يستوعبوا روح القرآن الكريم وفلسفة السيرة النبوية حتى يتمكنوا من مجابهة تأويلات المتطرفين المضلِّلة الخادعة. وفي السياق نفسه يمكن للدول التي يعيش فيها مسلمون أن تُسهِم في حل هذا الإشكال من خلال توسيع الحريات الدينية وضمانها.

على جميع أفراد الأسرة الإنسانية أن يتكاتفوا وينخرطوا ليكونوا جزءا من الجهود التي تبذل على مستوى العالم للكفاح ضد هذه التنظيمات الدموية التي ترتكب جرائمها تحت مسميات دينية.

ومن المسائل الهامة التي ينبغي أن يتضمنها هذا المنهاج التربوي المتكامل الإعلاءُ من قيمة الإنسان على أساس أنه آية من آيات الله تعالى. فقد خاطب الله ﷻ البشرية كافة دون تمييز بين معتقداتهم في آيات عديدة من القرآن الكريم، وشرّف الإنسانية جميعها حينما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، كما أكد القرآن الكريم على أن قتل إنسان بريء جريمة تساوي قتل البشرية كلها ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾(المائدة:٣٢). وحرم الرسول ﷺ بشدة ممارسة العنف ضد الأفراد العزّل لا سيما النساء والأطفال ورجال الدين في حالات الحروب المشروعة ذات الأهداف الدفاعية. هذا فضلا عن أن جميع الحروب التي خاضها النبي ﷺ كانت حروبا دفاعية حسبما أكد مؤرخون كبار من أمثال عبد الرحمن عزام وأنا أشاركهم في رأيهم هذا، ومن ثم فإن الاعتقاد بأن المرء

يمكنه أن يدخل الجنة من خلال قتل الآخرين ضلال ليس بعده ضلال.

ومن الأخطاء الأخرى الفادحة التي يرتكبها هؤلاء المتطرفون الذي يلجئون إلى العنف، هو محاولة النقل الحرفي للأحكام الدينية التي تم تطبيقها في القرون الوسطى -حيث كان الاختلاف الديني يُستخدم أداة للصراعات السياسية- إلى القرن الواحد والعشرين. بينما الفرصة اليوم متاحة للمسلمين لكي يمارسوا أنشطتهم الدينية في البلدان الديمقراطية بكل حرية. إن العدالة الاجتماعية وسيادة القانون والمساواة واتخاذ القرارات بصورة جماعية وأمثالها من المبادئ الأساسية في الإسلام أكثر انسجاما مع نمط الحكومة التشاركية اليوم. وبالتالي يمكن للمسلمين أن يعيشوا في البلدان الديمقراطية كمواطنين يقدمون إضافات إيجابية للبلد الذي يعيشون فيه، وهذا هو الحاصل اليوم.

ومن باب اتخاذ تدابير تفيد في المستقبل، ينبغي أن نلبي احتياجات شبابنا الاجتماعية من خلال حلول إيجابية، نوفر لهم فيها فضاءات مناسبة تستوعب طاقاتهم بصورة إيجابية بناءة. من الممكن أن نحفز الشباب لكي يتطوعوا على شكل مجموعات ويشاركوا في مشاريع إنسانية هامة، يساعدون فيها ضحايا الحروب والكوارث الإنسانية والطبيعية المختلفة. إن مشاريع إنسانية كهذه تساعد على تخفيف آلام المتضررين من ناحية، وتشعر المتطوعين الشباب بالأهمية والسعادة كونهم أصبحوا جزءا من مشروع إنساني حيوي. فالعمل المشترك في مشاريع إنسانية كهذه مع أفراد ينتمون إلى أديان أخرى سيتيح الفرصة للحوار المشترك ويعزز من إمكانية التفاهم ويبعث

في القلوب مشاعر الاحترام المتبادل. بفضل هذا النوع من التواصل والعمل المشترك سيتمكن شبابنا من استيعاب حقيقة أنهم جزء من الأسرة الإنسانية الكبرى كذلك، وليسوا أعضاء في الفئة العقدية التي ينتمون إليها فحسب. وهكذا فإن جميع الفعاليات الإيجابية التي تقوم بها مجموعات مشتركة على هذا النحو، سوف تساعد الشباب على أن يؤسسوا لأنفسهم شخصيات سليمة وانتماءات إيجابية.

إن رجال مجموعة "الخدمة" الذين أفخر بأني واحد منهم، قد أسسوا انطلاقا من سبعينيات القرن الماضي أكثر من ألف مدرسة حديثة، وآلافًا من مراكز الدعم المدرسي والمراكز الشبابية، وعشرات الجامعات والمستشفيات والمنظمات الإغاثية، وهذه المؤسسات والحلقات التطوعية التي تشكلت حولها، استفادت من الشباب الموهوبين والشباب المتخصصين معلمين ومرشدين تربويين ومدربين ومساعدين، فمكّنتهم من أن يحققوا لأنفسهم شخصيات سليمة متوازنة، وينمّوا لديهم شعورا بالانتماء الإيجابي، ويعيشوا من أجل أهداف إنسانية نبيلة.

وجدير بالذكر أن مجموعات التطرف لم تتمكن من أن تؤثر على الشباب الذين شاركوا في مشاريع "الخدمة"، ولم تستطع أن تورطهم في أي عمل من أعمال العنف والإرهاب قط. فهذه المؤسسات استطاعت أن تعلم شبابها عدة لغات أجنبية، ورتبت لهم رحلات ثقافية إلى بلدان مختلفة، الأمر الذي نمّى عندهم قابلية معرفة العالم وفهم الآخرين والتفكير المرن والقراءة التحليلية النقدية.

إن أفضل طريق إلى تعزيز نظام المناعة لدى شبابنا إزاء الأفكار المنحرفة التي يحاول المتطرفون غرسها في عقولهم، أن نطلعهم –عبر برامج تربوية من جهة ومشاريع عملية من جهة أخرى- على طريق إيجابي بديل للسير فيه.

إن المسلمين يرددون كل يوم في صلواتهم ودعواتهم هذا الطلب مرارًا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦). وإن من أهم الشروط للثبات على الصراط المستقيم اليوم، أن نحاسب أنفسنا ونتساءل هل فهمنا المبادئ الأساسية لديننا حق الفهم يا ترى؟ كما ينبغي أن نراجع واقعنا للنظر إلى أي مدى استطعنا أن نطبق تلك المبادئ في حياتنا، وأن نعزز نظام المناعة لدى شبابنا إزاء الأفكار المناقضة لتلك المبادئ السامية.

على جميع أفراد الأسرة الإنسانية أن يتكاتفوا وينخرطوا ليكونوا جزءا من الجهود التي تبذل على مستوى العالم للكفاح ضد هذه التنظيمات الدموية التي ترتكب جرائمها تحت مسميات دينية، وذلك منعا للهجمات الوحشية التي حدثت في مدينتي لندن ومانشستر من أن تتكرر في مكان آخر مرة أخرى.

إن الفكر هو الوقود المحرك للحياة وغذاؤها الذي يجدد الحركة والنشاط والسعي في أرجاء الأرض؛ فما من عمل إلا ويسبقه فكرة تمده بالنماء والاستمرار. والثروة الحقيقية التي تمتلكها المجتمعات، إنما هي ثروة فكرية في المقام الأول، تغذي مجالات البناء بخطط راشدة، تتحول إلى إعمار وتشييد، فإذا أصيبت المجتمعات في فكرها، فلا خير يُرجى من ورائها؛ لذا وجب على العلماء أن يؤدوا مسؤوليتهم تجاه المجتمع الإنساني بأكمله، حماية وصيانة للمجتمعات من خطر يتهددها، وغوائل تفترس ناشئتها على المدى القريب أو البعيد، خاصة في ظل التحول الذي تشهده المجتمعات على كافة الأصعدة، وكثرة العوارض والتحديات التي تنتاب مقصد "الأمن".

ومن هنا يأتي هذا السفر الثمين من خلال مقالاته الثماني عشرة، تلبية لهذه الضرورة المعاصرة، وتأكيدًا على هذه القضية المفصلية في بناء المجتمعات والأوطان، إنها قضية "الأمن" في شتى أبعاده وصوره التي تستغرق الحياة كلها وتعلو فوق الزمان والمكان، كما أنها تتجه إلى تحقيق هذا الأمن من خلال مسارين؛ أولهما المسار البنائي للفكر الصحيح المتوازن، وثانيهما اتجاه الحماية والتحصين، الذي يحوط البناء بسياج منيعٍ واقٍ من التصدع والانهيار.

ISBN 978-977-6704-03-9
9 789776 704039

دار الانبعاث للنشر والتوزيع